الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية
سلسلة البحوث الإسلامية
(٥٦/٦)

# نحو منهج لتفسير القرآن



محمد الصادق عرجون
عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقا

الطبعة الأولى
٢٠٢٥م

الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية

إن مجمع البحوث الإسلامية هو أحد الهيئات العلمية للأزهر الشريف يقوم على تحقيق كل ما يخدم المصلحة العامة للمسلمين، ويجمع كلمتهم، ويعمل على تحقيق الأمن والاستقرار، والتعايش السلمي، كما يعمل المجمع على تحقيق رسالة الأزهر في توعية الناس وتبصيرهم بحقائق هذا الدين، وتصحيح المفاهيم المغلوطة، وبيان سماحة ووسطية الإسلام، وأهمية فهم النصوص الشرعية مع فهم الواقع.

ومن هنا تأتي رؤية المجمع في اعتنائه بقضايا المجتمع الإسلامي؛ لجمع الكلمة بين المسلمين، وتحقيق التعايش السلمي بين الناس، وتجديد الثقافة الإسلامية وتجليتها في جوهرها الأصيل، وبحث القضايا المعاصرة، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

٩٢ نحو منهج لتفسير القرآن
٩٩٠٠٠٠٠٠٠٠٩٢٩

تصميم: طارق الأشهب

الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية
سلسلة البحوث الإسلامية
(٥٦/٦)

# نحو منهج لتفسير القرآن

محمد الصادق عرجون
عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقا

السنة السادسة والخمسون - الكتاب السادس
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

جمهورية مصر العربية
الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية
شارع الطيران ـ مدينة نصر
القاهرة

فِهرست الهيئة المصريَّة العامَّة
لدار الكُتُب والوثائق القوميَّة

نحو منهج لتفسير القرآن
عرجون، محمد الصادق

**الطبعة الأولى**
**١٤٤٦هـ = ٢٠٢٥م**

١١ × ١٧ سم
عدد الصفحات: ١٠٣

❁ الإدارة العامة للمطبوعات
رقم الإيداع: ٢٩٩٤٦/٢٠٢٤
الترقيم الدولي: ٩ – ٦٨٥ – ٢٠٥ – ٩٧٧ - ٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

# تصدير

## بقلم

**الأستاذ الدكتور/ نظير محمد عيَّاد**

**الأمين العام لمجمع البحوث الإسلاميَّة**

**ورئيس تحرير مجلة الأزهر**

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمن الرَّحِيم، الحَمْدُ للهِ ربِّ العَالَمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ أَشْرَفِ الخَلْقِ أَجْمَعِين، سَيِّدنا محمَّد ﷺ، وآلِهِ، وصَحْبِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلىٰ يوم الدِّين.

وبَعْدُ، فإنَّ عِلْمَ التَّفْسِيرِ أعْلَىٰ العُلُومِ شَأْنًا، وأَقْوَاهَا بُرْهَانًا، وأَوْثَقُهَا بُنْيَانًا، وأَوْضَحُهَا تِبيَانًا. كَيْفَ لا .. ومَوْضُوعُهُ: الْقُرْآنُ الكَرِيمُ؟! مُفَجِّرُ الْعُلُومِ وَمَنْبَعُهَا، وَدَائِرَةُ شَمْسِهَا وَمَطْلَعُهَا، هَذَا مَعَ فَصَاحَةِ لَفْظٍ وَبَلَاغَةِ أُسْلُوب، وَإِعْجَازِ نَظْمٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا عَلَّامُ الْغُيُوب. بَهَرَتْ بَلَاغَتُهُ الْعُقُول، وَظَهَرَتْ فَصَاحَتُهُ عَلَىٰ كُلِّ مَقُول، قَدْ أَحْكَمَ الْحَكِيمُ صِيغَتَهُ وَمَبْنَاه، وَقَسَّمَ لَفْظَهُ وَمَعْنَاه، إِلَىٰ مَا يُنَشِّطُ السَّامِع، وَيُقَرِّطُ الْمَسَامِع، مِنْ: تَجْنِيسٍ أَنِيسٍ، وَتَطْبِيقٍ لَبِيقٍ، وَتَشْبِيهٍ

نَبِيـِهِ، وَتَفْصِـيلٍ أَصِـيلٍ، وَتَبْلِيـغٍ بَلِيـغٍ؛ فَـالْآذَانُ بِأَقْرَاطِـهِ حَالِيَـةٌ، وَالْأَذْهَانُ مِنْ أَسْمَاطِهِ غَيْرُ خَالِيَةٍ، فَهُوَ مِـنْ تَنَاسُـبِ أَلْفَاظِـهِ، وَتَنَاسُـقِ أَغْرَاضِهِ، قِلَادَةٌ ذَاتُ اتِّسَاقٍ، كُـلُّ كَلِمَـةٍ مِنْهُ لَهَا مِنْ نَفْسِـهَا طَـرَبٌ، وَمِنْ ذَاتِهَا عَجَبٌ، فَكَانَ الْحَالُ بِتَصْدِيقِهِ أَنْطَقَ مِنَ اللِّسَـانِ، وَبُرْهَـانُ الْعَقْلِ فِيـهِ أَبْصَرَ مِنْ شَـاهِدِ الْعِيَـانِ. فَسُـبْحَانَ مَـنْ سَـلَكَهُ يَنَـابِيعَ فِي الْقُلُوبِ، وَصَرَّفَهُ بِأَبْدَعِ مَعْنًى وَأَغْرَبِ أُسْلُوبٍ! لَا يَسْتَقْصِـي مَعَانِيَـهُ فَهْـمُ الْخَلْقِ، وَلَا يُحِيطُ بِوَصْـفِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ذُو اللِّسَـانِ الطَّلْـقِ؛ فَالسَّعِيدُ مَنْ صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَيْهِ، وَوَقَفَ فِكْرَهُ وَعَزْمَـهُ عَلَيْـهِ، وَالْمُوَفَّـقُ مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ لِتَـدَبُّرِهِ، وَاصْطَفَاهُ لِلتَّذْكِيرِ بِـهِ وَتَـذَكُّرِهِ. وَإِنَّمَـا يَفْهَـمُ بَعْضَ مَعَانِيهِ، وَيَطَّلِعُ عَلَى أَسْرَارِهِ وَمَبَانِيهِ، مَـنْ أَدَامَ فِيـهِ النَّظَـرَ وَالتَّدَبُّرَ، وَإِعْمَـالَ الْفِكْـرِ وَالتَّبَصُّـرَ. وَامْتَـدَّ فِي فُنُـونِ الْأَدَبِ، وَكَـانَ عَلَى عِلْمٍ بِلُغَةِ الْعَرَبِ(١).

(١) مُسْتَفَادَةٌ مِنْ مُقَدِّمَة: البُرْهَان في عُلُوم القُرْآن للزَّرْكَشِيِّ، والتَّحْرِير والتَّنْوِير لِلطَّاهِر ابنِ عَاشُور.

وَمِنْ هُنَا اسْتَوْجَبَ الحالُ تَسْلِيطَ الضَّوْءِ علىٰ مُؤَلَّفٍ يَنْطَوِي علىٰ مَنْهَجٍ لتفسيرِ القُرْآن، وعليه فتَأْتِي أهمِّيَّةُ كتاب: (نَحْوَ مَنْهَجٍ لِتَفْسِيرِ القُرْآن)، لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد الصَّادق عرجون، عميد كليَّة أصول الدِّين- جامعة الأزهر الشَّريف بالقاهرة سابقًا.

وقد صَدَّر المُؤلِّفُ كتابَهُ بمُقدِّمةٍ بيَّن فيها مَقْصِدَهُ من عنوانِ مُؤَلَّفِه، مُقرِّرًا: أنه يَعْنِي المناهِجَ التي تَضَعُ القرآنَ الكريمَ في موضعِهِ الأصيلِ من الدِّراساتِ الإسلاميَّة، باعتبارِ أنه هو المنبعُ الأوَّلُ لتلك الدِّراسات في جميع مَنَاحِيهَا، وشَتَّىٰ اتِّجاهاتها، مع الحديثِ عن هذه المناهِجِ الدِّراسيَّةِ في تفسيرِ القُرْآن التي وَقَفَ عندها التفكيرُ الإسلاميُّ المُؤْمِنُ مُتطلِّعًا إلىٰ آفاق الحياة، مُترقِّبًا إشراقَ شَمْسِ الهدايةِ من وراءِ سُحُبِ التَّخَلُّفِ عن قافلة التَّفْكِير الآدميِّ؛ لِتُبَدِّدَ ظُلماتِ الجمودِ العاجزِ عن حياةِ المُسْلِمِين.

ثم تحدَّث عن القُرْآنِ في مناهجِ دراستِنا الإسلاميَّة، مُتضمِّنًا مَبْعَثَ الدِّراساتِ الإسلاميَّة، وعارضًا البحثَ في جانبِ العباداتِ،

ومُلْقِيًا الضَّوْءَ علىٰ جانب البحوثِ اللُّغوِيَّة، ومُتناولًا عنوانَ إقحامِ حصائلِ الفكرِ البشريِّ في تفسيرِ جانبِ العقِيدَة.

ثم تَناوَلَ طرفًا من الفلسفةِ الإسلاميَّة، مُتحدِّثًا عن قرونِ الفُرْقَة، ثم تيَّار التَّجْدِيد، ثم إخضاعِ القُرْآنِ لِلنَّظَرِيَّاتِ المَهْزُوزَة.

وَانْطَلَقَ بعدَ ذلك في رحلةٍ مُبارَكةٍ عَرَضَ فِيهَا لِلتَّفَاسِيرِ العَصْرِيَّة، والتي تُعْنَىٰ بالإِعْجَازِ القُرْآنِيِّ في أَوْجِ أَوْجُهِه، ألا وهو إِعْجَازُهُ العِلْمِيُّ، ذلك الثَّوْبُ الجَدِيد، واللِّسَانُ الصَّادِعُ بالعَجِيب.

فعَرَضَ لِتَفْسِيرِ رَتْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وفَتْقِهِمَا.

ثمَّ تناوَلَ تفسيرَ الشَّيْخ (محمَّد عبده) لِسُورَةِ الفيل، ثم تَفْسِيرَهُ لِخَلْقِ الملائِكَةِ عليهم السَّلام.

ثمَّ أَلْقَىٰ الضَّوْءَ علىٰ المتحمِّسِينَ لِنَظَرِيَّاتِ العِلْمِ المُسْتَحْدَثَةِ والتَّحْرِيف.

وَانْتَقَلَ من ذلك إلىٰ قراءةٍ جديدةٍ تحت عنوان: (في سبيلِ دِرَاسَةٍ مُتَحَرِّرَةٍ لا مُتَحَلِّلَةٍ)، وقد انتظَمَتْ أَرْبَعَةَ مَحَاوِرَ. الأَوَّل: الآياتُ الكَوْنِيَّةُ في القُرْآن. الثاني: نَظَرٌ تَفْصِيلِيٌّ في عُمُومِ الجُزْئِيَّات.

الثالث: الرَّاسِخُونَ في العِلْم. الرابع: الرَّازِي ومُحاوَلاتُهُ في فَهْمِ الآياتِ الكَوْنِيَّة.

مُقرِّرًا مِن وراءِ ذلك أهمِّيَّةَ الجانِبِ الكَوْنِيِّ في آياتِ الذِّكْرِ الحَكِيم، مُبْرِزًا أنه عِمَادُ الدَّلائِلِ الإلهيَّةِ علىٰ وُجُودِ الذَّاتِ العَلِيَّة، وبُرْهَانُ تَوْحِيدِه، ودَلِيلُ صِفَاتِهِ الجليلةِ، وحُجَّةُ نُعُوتِهِ الجَمِيلَة، وبَصِيرَةُ عَجَائِبِ خَلْقِهِ، وعُنْوَانُ وَاسِعِ فَضْلِهِ، وآيَةُ تَعَاجِيبِ آثارِ قُدْرَتِه.

ثمَّ عَمَدَ إلىٰ الحديثِ عن القُرْآنِ الكَرِيم باعتبارِهِ (الدُّسْتُور المُوَجِّه)، مُتضمِّنًا ثلاثةَ مَحاوِرَ. الأوَّل: إيقاظُ العُقُولِ لِلتَّحَرُّرِ من العُبُودِيَّةِ لِغَيْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالىٰ. الثاني: سُنَّةُ التَّدافُعِ بَيْنَ البَشَرِ في آيَتَيْن. الثالث: نَقْدٌ لِتَفْسِيرِ الطَّبَرِيِّ والقُرْطُبِيِّ.

وقد وَجَّهَ في خِتَامِ كتابِهِ إلىٰ حَتْمِيَّةِ تَنْقِيحِ مَصَادِرِ التُّرَاثِ التَّفْسِيرِيِّ، مُسَجِّلًا مِن وَرَائِهِ عَظِيمَ الجُهُودِ التي بَذَلَها أعلامُ التَّفْسِير السَّابِقُون، ومُبَيِّنًا دَوْرَ الأُمَّةِ في العِنَايَةِ بأعمالِهِم المُقدَّمة، وجُهُودِهم المَبْذُولة، والبُلُوغِ بها إلىٰ القِمَّةِ السَّامِقَة، مُقرِّرًا أنَّ هذا

العَمَلَ التَّنْقِيحِيَّ الجَلَلَ يتطلَّبُ مجمعًا قرآنيًّا، مِن شَأْنِهِ أنْ يَضَعَ مَنْهَجَيْن لِلتَّفْسِير.

وقد عَنْوَنَ لذلك بـ (ضَرُورَة غَرْبَلَةِ كُتُبِ التَّفْسِير)، وتَمثَّلَتْ غَايَتُهُ في مَحَاوِرَ أرْبَعَةٍ. الأوَّل: المُفَسِّرُونَ القُدامَىٰ بَذَلُوا جُهُودًا مَشْكُورَةً. الثاني: الوَاجِبُ الكَبِيرُ المُلْقَىٰ علىٰ عَاتِقِنَا. الثالث: مَجْمَعٌ قُرْآنِيٌّ. الرابع: مَنْهَجَانِ لِتَفْسِيرِ القُرْآن.

**ذلك، وحَقِيقٌ بالذِّكْر**: أنَّ هذا العَمَلَ الرَّائِقَ إنَّما يَنُمُّ عن غَزَارَةِ عِلْمِ مُؤلِّفه، ونُبُوغِهِ العِلْمِيِّ، سواءً أكانَ علىٰ الصَّعِيدِ المَعْرِفيِّ، أم الصَّعِيدِ التَّأْلِيفِيِّ؛ إذ ظَهَرَتْ فيه شخصيَّتُه الفَذَّةُ، وقُدْرَتُهُ الفَائِقَة، مع جَوْدَةِ العِبَارات، وبَرَاعَةِ الأَسَالِيب، وجَزَالَةِ العَرْض، وتَسَلْسُلِ الأَفْكَار.

وقد امتازَ هذا المُؤلَّف بواقعيَّةِ الحالِ تارةً، والتطلُّعِ نَحْو حُلْمِ المُستقبَلِ تارةً أخرىٰ، مُمثَّلًا في وَضْعِ القُرْآنِ في مَقَامِهِ المَنُوطِ به، وفَهْمِ حَقَائِقِ الكَوْنِ مِن خِلالِه؛ كَيْفَ لا .. وهُوَ كتابُ الخَالِقِ سُبْحَانَهُ وتَعَالىٰ!

فبَدَهِيٌّ أنَّ ما أطْلَقَهُ فيه مِن قضايا كونيَّة، ومُسَمَّيَاتٍ فَلَكِيَّة، وآياتٍ آفاقيَّة- إنما يحملُ في مَكْنُونِهِ من الحَقَائق، ويَنْظِمُ في مَطَاوِيهِ من الأسرار، ويَعْقِدُ في مَنْظُومَتِهِ العربيَّةِ مِن أوْجُهِ الإعْجَازِ، ما به يتأكَّدُ أنه كلامُ المُنَزِّلِ الحَكِيمِ جَلَّ وتَعالىٰ عن العالمين، الذي أوْدَعَ نَظْمَهُ مُرَادَاتِه، وأَسْكَنَ كَلِمَهُ حِكَمَهُ وأَسْرَارَه.

كما نَمَّ هذا العَمَلُ المَوْسُوعِيُّ فكرًا عن تحرُّرِ مُؤَلِّفِهِ من نَبراتِ التَّعَصُّبِ الأَعْمَىٰ مِنْ وَجْهٍ، مع الِانْتِمَاءِ إلىٰ مبدأ الأَصَالَةِ مِن وَجْهٍ آخَرَ؛ فجَمَعَ تطبيقيًّا خَصَائِصَ العَالِمِ العَامِلِ بما عَلِمَهُ.

فجَزَىٰ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مُؤَلِّفَهُ خيرَ الجَزَاء، وأَجْزَلَ له المَثُوبَة، ونَفَعَ بِعِلْمِه، وجَعَلَهُ في مِيزَانِ حَسَنَاتِهِ، وسَخَّرَهُ في إصْلاحِ حَالِ الأُمَّةِ، وإيقَاظِهَا مِن رُقُودِهَا، وَابْتِعَاثِهَا نَحْوَ عَظِيمِ دَوْرِهَا، وَالانْطِلَاقِ نَحْوَ بيانِ مُرَادِ اللهِ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ وَفْقَ مَنْهَجٍ سَدِيد، وتحرُّرٍ مَنْشُود، يَقُودُ إلىٰ الحقِّ، ويُرْشِدُ إلىٰ النُّور، مع الِاعْتِمَادِ علىٰ مَصَادِرِ تُرَاثِنَا النَّفِيسَة، والِاعْتِرَافِ بِجُهُودِ أعْلَامِنَا الفَائِقَة.

لـذا يَسُـرُّ الأمانـةَ العامَّـةَ لِمَجْمَـعِ البُحُـوثِ أنْ تُقَـدِّمَ لِلْقَـارِئِ الكَرِيمِ هذا العَمَلَ، واللهَ نسأَلُ أنْ ينفعَ به قُرَّاءَنـا وأبناءَ أُمَّتِنَا، وأنْ يكونَ قد أدَّىٰ الغايةَ مِن نَشْرِهِ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ وبَارَكَ علىٰ سيِّدِنَا محمَّدٍ، وعلىٰ آلِهِ، وصَحْبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلىٰ يوم الدِّين، وآخرُ دَعْوَانَا: أَنِ الْحَمْدُ للهِ ربِّ العَالَمين.

**الأستاذ الدكتور/ نظير محمد عيَّاد**
**الأمين العام لمجمع البحوث الإسلاميَّة**
**ورئيس تحرير مجلة الأزهر**

# مقدّمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وأصحابه.

## أيها السادة،

«نحو منهج لتفسير القرآن»، ماذا يعني هذا العنوان؟ هل يعني أن يجري الحديث في هذا البحث نحو عرضٍ لمنهج تفسير القرآن أو مناهجه الموجودة الآن بين أيدي المسلمين تُدرَّس في مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم ومحافلهم كما تحدّث عنها أئمة التفسير من جهابذة المنقول والمعقول؟ أو أنه يعني أن يجري الحديث عن منهج للتفسير جديد مبتدع مبتكر لم يأت بمثله الأوائل في تفاسيرهم التي عَرفَت الكثير منها المكتبةُ القرآنيةُ منذ بدأ أعلام الصحابة وتلاميذهم يفسرون القرآن؟

أما مجرد عرض مناهج التفسير الموجودة الآن بين أيدي المسلمين ـ على اختلاف مراتبها وتفاوت درجاتها في الاعتماد على النقل أو العقل ـ فهذا شيءٌ لا ينبغي أن يكون هدفًا لبحث يقصد إلى إبراز فكرة تضع القرآن الكريم ـ أو تنبِّه إلى وجوب

وضع القرآن الكريم - في موضعه الأصيل من الدراسات الإسلامية أينما توجد هذه الدراسات، باعتبار أن القرآن العظيم هو المنبع الأول لهذه الدراسات في جميع مناحيها واتجاهاتها الدينية الخالصة أو الدنيوية المنظمة للحياة وكلها في نظر الإسلام دين.

بيد أننا لا نرى مانعًا من أن يجرَّنا الاستطراد الجاحظي إلى الحديث عن هذه المناهج الدراسية في تفسير القرآن التي وقف عندها التفكير الإسلامي المؤمن المتطلِّع إلى آفاق الحياة مترقبًا إشراق شمس الهداية من وراء سحب التخلف عن قافلة التفكير الإنساني؛ لتبدد ظلمات الجمود العاجز، أو العجز المتجمد عن حياة المسلمين في هذه الأعصر الفوَّارة بالتوثُّب العقلي، لنرى ما في تلك المناهج من حوافز دفعت المسلمين في نهضتهم الفكرية دفعًا أناف بهم على ذروة القيادة الإنسانية فكريًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا، ولنرى أيضًا ما أُقحِم على تلك المناهج من معوِّقات من رواسب التفكير المتخلف أو المنحرف، ظلت تلك المعوقات متربصة بالمجتمع الإسلامي تتحين فرصة الوثوب عليه لترده عن سيره الجاد الماجد في قيادة الحياة إلى غثاء من الخرافات

والأساطير، والخوف من السَّبْحِ في لجج التفكير الناهض والرضا بالقناعة الذليلة المُذِلَّة.

ولنرى ثالثًا مكان تلك الحوافز الدافعة، ومكان تلك المعوِّقات من حياتنا اليوم، ونعرف مكاننا فيها؛ لنستطيع أن نخلص بالحوافز القرآنية الدافعة في منهج تفسير نُقَيم عليه دعائم حياتنا - نحن المسلمين - بعيدًا عن المعوقات المخذِّلة التي تجد من واقعنا اليوم ما يفرضها على حياة المسلمين ليعيشوا في أجوائها الوبيئة قانعين.

أما فرض الحديث في هذا البحث عن منهج للتفسير جديد مبتدع مبتكر فات الأولين أن يحوموا حول ساحته فهذا غرور أجوف، وكبرياء طبولية، ودعاوى كسيحة، لا تنهض على ساق من واقع العلم والهدى، ونعوذ بالله من خزي الغرور، ومن غرور الكبرياء الفاضحة، ونسأله سبحانه ذلَّ العبودية لجلاله، ونستلهمه التوفيق.

إذًا؛ فماذا يعني عنوان هذا الكتاب «نحو منهج لتفسير القرآن»؟!

إنه يعني الحديث عمَّا ينبغي أن تكون عليه الدراسة القرآنية في مناهج دراستنا الإسلامية التي يجب أن نوجِّه إليها - وكدت أقول - أن نحوِّل إليها واقعنا الدراسي في تفسير القرآن؛ ليكون وجودنا العلمي وواقعُنا الفكري متمشيَيْنِ مع ما يقتضيه خلود القرآن العظيم باعتباره كتاب الإنسانية كلها، أُنزل لهدايتها في جميع عصورها وأجيالها، ذلك الكتاب الذي ختم الله به وَحْيَه، وختم بشريعته شرائعه السماوية، وختم بنبوة مَن أنزلنه عليه النبوة، فلا نبوة بعد نبوة خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ، ولا كتاب ينزل من السماء بعد القرآن، ولا شريعة تصلح أن تُشرِّع للحياة ما يكفل للإنسانية سعادة الدين والدنيا بعد شريعة القرآن.

ومن ثم؛ كان واجبًا علينا أن نتبيّن واقعنا الدراسي في تفسير القرآن العظيم، وكان واجبًا علينا أن نَزِنَ هذا الواقع بميزان الكفاية في تحقيق حاجة المسلمين في واقعهم إلى فهم القرآن فهمًا يقيم دعائم الحجة النَّيِّرة على مقاصد هذا الكتاب الحكيم فيما جاءَ به من أصول العقيدة، والتعبد، والتربية السلوكية، والنظم الاجتماعية، والأوضاع الاقتصادية، والطرائق الحُكْمية، والتحرر الفكري، والترابط الإنساني بين الأفراد والجماعات، إلى سائر

المعاني والأفكار التي استهدفها القرآن في آياته البينات وأسلوبه القاهر، وواقعيته في الاستجابة إلى دعوات الخير ودوافع الإصلاح.

وما أظن أن أحدًا يتخالجه مَسٌّ من الشك في أن المسلمين اليوم - وبعد اليوم على مدى مستقبلهم القريب والبعيد - في أشد الحاجة إلى أن يستلهموا من القرآن العظيم دستورَهم الأكرم، حوافزه الدافعة بفهمه فهمًا يُغيِّر من حياة المسلمين، ويضعها في وضع يُمكِّن للإسلام من نَشْر رايته على الآفاق باعتباره دينًا، ونظامًا اجتماعيًّا متكاملًا، يحمل في صفحات دستوره كل ما تتطلبه الحياة الحرة الكريمة المستقيمة، بل يحمل في تلك الصفحات كل ما تصبو إليه الإنسانية من سعادة وتقدُّم ورقي.

فهمًا يمكِّن للمسلمين أن يعيشوا في حاضرهم ومستقبلهم مع الحياة الناهضة التي أصبح فيها سلطان العلم والمعرفة فوق كل سلطان، مع الحياة التي وثب فيها العقل الإنساني وثبات كادت تحيل الطفرة إلى حقيقة من حقائق الواقع الملموس.

فهل إذا وَزَنَّا الدراسة القرآنية في مناهجنا الدراسية التي تسير

عليها اليوم جميعُ البلاد الإسلامية - والتي سارت عليها منذ قرون بعد انفراط عقد النهضة الإسلامية - بميزان الكفاية في واقعنا الذي يعيشه المسلمون في هذا العصر نستطيع أن نزعم أن هذه الدراسة القرآنية تقوم بحاجات المسلمين، وتسد مطالبهم الفكرية والاجتماعية في هذا العصر والعصور المقبلة بما فيها من توثبات فكرية، ومذاهب اجتماعية، وكشوف علمية، وطموح عقلي، ومعارف تجريبية، ونظريات كونية، وآراء فلسفية، وانحرافات دينية، وأوضاع اقتصادية، ونظم سياسية؟!

لن يستطيع مفكّر عُني بالمكتبة القرآنية في تاريخ الفكر الإسلامي أن ينكر أن القرآن العظيم حظي بعناية من البحث والدراسة لم يحظ بمثلها كتاب، أيّ كتاب، إلهي أو بشري، عُرِف أو يُعْرَف في حياة المجتمع الإنساني على مدى تاريخ الحياة فوق هذه الأرض.

# القرآن في مناهج دراستنا الإسلامية

- مبعث الدراسات الإسلامية.
- البحث في جانب العبادات.
- جانب البحوث اللغوية.
- إقحام حصائل الفكر البشري في تفسير جانب العقيدة.

لقد كان القرآن الكريم مبعث جميع الدراسات الإسلامية نقلية وعقلية، أدبية أو دينية، اجتماعية أو تربوية؛ لأن هذا الكتاب كان وما زال هو النبع الأصيل الذي فاضت وتفيض منه روافد علوم الإسلام ومعارف العربية.

بيد أن هذه العناية التي لقيها القرآن على أيدي غطارفة[1] الباحثين من أئمة الإسلام وأعلام الأمة، كانت تتناول بعض جوانبه فتتسع تارة فسيحة الأرجاء متشعبة المناحي مسهبة العبارات، تتكرر بين البدء والإعادة.

وكانت في بعض جوانبه إيجازًا أقرب إلى الرمز والإشارة منها إلى البحث التحليلي المتعمق.

فنحن نجد أن البحث في جانب العبادات من تفاسير القرآن قد اتسع مجاله، ونالت فيه مسائل الفروع الفقهية عناية تجاوزت واقع الناس إلى الفروض والتخمينات.

(١) الغِطْرِيف: السيد الشريف السخي، انظر: لسان العرب، لابن منظور مادة (غطوف).

وفي جانب البحوث اللغوية - إفرادًا وتركيبًا وأسلوبًا - نجد فيضًا من البحث في قواعد اللغة نحوًا وصرفًا وتفريعًا وإيرادًا للشواهد الصحيحة والمتحولة، ونجد جدلًا لفظيًّا عريض المدى صَرَفَ الباحثين عن المقصد الأعلى للقرآن الحكيم وهو الهداية في بيان القرآن وأسلوبه ومعانيه بما أغرقت فيه من جدل عقيم لا يُحْلِي ولا يُمِرّ.

وفي العقيدة - وهي أصل الأُصول التي نزل القرآن لتثبيت دعائمها - اتخذ جمهور المفسرين الذين لهم عناية بهذا الجانب الفكري من مقاصد القرآن حصائل الفكر البشري - قديمها وحديثها في أعصرهم - ميدانًا لبحوثهم، وألقوا بها في خضم الدراسة القرآنية على أنها تفسير لهذا الجانب من هذا الكتاب الكريم، وقد كان لإقحام هذه الحصائل الفكرية على حِمَى القرآن أثرُها المعوِّق على تبيين الهداية الإلهية بطريقة القرآن الخاصة في البرهنة على قضايا العقيدة، وَدَحْضِ شُبَهِ المبطِلِين.

# الفلسفة الإسلامية

- مِن قُرُونِ الفُرقة.
- تيّارُ التجديد.
- إخضاع القرآن للنظريات المهزوزة.

وللقـرآن الحكـيم طريقُـه الـذي امتـاز بـه في أسـلوب البرهنـة والاستدلال، وهو يورد ذلك في تنوع يتلاءم مع كل مقام وكـل بيئة وكل عقل.

وقـد أدَّى إغـراق الهدايـة القرآنيـة في خضـم الحصـائل الفكريـة إلى مشكلة فكرية تاريخية يصعب الخلاص منها، تلك هي تحميـل الإسلام ـ ومنبعُه الوحيد في العلوم والمعارف وهو القرآن العظيم ـ عـبء حصـائل الفكـر البشـري ذي اللـون الغريـب كـل الغرابـة عـن مفـاهيم الهدايـة الإسـلامية، وجَعْلُهـا مـن عمـل الإسـلام ومعارفـه وأفكاره، وقد هلل لها وتعبد لأساطينها الذين أُغرِموا بها.

ذلـك هـو مـا يُعـرَف في دراسـتنا وتاريخنـا الفكـري بالفلسـفة الإسـلامية، وهـي فلسـفة أجنبيـة عـن الإسـلام في أصـل وجودهـا، ولكنهـا «تأسـلمت» ـ إذا صـح هـذا التعبير ـ علـى أيـدي طائفـة مـن المفكرين الأذكياء لم يَحُلْ ذكاؤهم دون استسلامهم في الكثير مـن التفكير وقضـايا الفلسـفة الإلهيـة لمعلمهـم الأول «أرسـطو» كمـا سَمُّوه.

ولقد جالوا معه في ميدان البحث الفلسفي جولات لو أنهم صرفوها صادقين مستقلين إلى منبع الهداية الإلهية لكان لنا ـ معشر المسلمين ـ اليوم فلسفة إسلامية حقيقية، تنبع من أصل أصولنا ومنبع هدايتنا القرآن العظيم.

وهكذا صارت الدراسة القرآنية في مراحل التاريخ الإسلامي تقليدًا لما ورثناه من قرون الفُرقة الإسلامية، ولم نحاول في دراستنا أن نستجيب لدواعي العلم؛ أداءً لحق العقل المتحرِّر من قيود الاستعباد الفكري والتقليد المستسلِم، واستعادةً للعزة الإسلامية التي أقام القرآن الكريم صرح بناءِ الأمة على دعائمها.

والذين حاولوا مِنَّا أن يتحرروا لم يكن لهم من سلاح العلم الصحيح والعقل الرجيح والاعتصام بأُصول الإسلام ما يعصمهم عن الوقوع في مزالق التقليد الأهوج لقوم هم أَبعد ما يكونون عن الإسلام ومفاهيم هدايته، وهؤلاء ـ بتعبير أصح ـ تحللوا ولم يتحرروا؛ جريًا وراء بريق الشهرة الزائفة وغرور التجديد، وحمّلوا القرآن في تفسيره ما لا تحتمله آياته من أقوال ومذاهب ونظريات هي أقرب إلى التعسف والتحريف منها إلى التفسير والتحرير،

فخصصوا العام، وعمموا الخاص، وأطلقوا المقيَّد، وقيدوا المطلق، ونسخوا المُحكَم، وأحالوا الظواهر، وجعلوا ما للآخرة منه للدنيا، وما للدنيا للآخرة.

والذي يثير الدَّهْش والأسف أن بعضًا من الأفاضل الأكابر الذين أجادوا بيان هداية القرآن في بعض بحوثهم الدراسية للقرآن الكريم جرفهم تيار التجديد؛ فانزلقوا في منحدر التأويل المتعسِّف، وحاول بعضهم إخضاع آيات القرآن لنظريات زعم أصحابها أنه قد استقام لها الاستدلال وأصبحت عِلْمًا مُقرَّرًا لا يحتمل الشك والارتياب، مع أنها نظريات لا تزال يعوزها الاستقرار العلمي، وتفتقد البرهان الذي يرفعها إلى مظنونات الحقائق، بله اليقين.

ولو أن هؤلاء الأجلاء صحبهم التوفيق فَقَصَرُوا دراساتهم القرآنية على بيان هداية الكتاب الكريم، بعيدًا عن تعسف التأويل لمجرد الرغبة في التجديد وإمامة المجددين، لكان للمسلمين من وراء هذه الدراسات القرآنية دعائم يقوم عليها تفسيرٌ للقرآن يسد بعض الفراغ الذي يشعر به العالم الإسلامي في مجالات الأهداف الاجتماعية التي يتطلعون إليها من آفاق ذلك الكتاب الحكيم.

وشاهِدُ هذا ما أشرنا إليه في كتابنا «القرآن العظيم - هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين -» أن أحد هؤلاء الأجلاء يقول في تفسير قوله تعالى من سورة لقمان:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾[لقمان:١٠]

«إن الكتاب الكريم - القرآن طبعًا - قرر أن الأرض كانت جزءًا من السماوات وانفصلت عنها.. وهذا الذي قرره الكتاب الكريم هو الذي دل عليه العلم، وقد قال العلماءُ إنَّ حادثًا كونيًّا جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها، وإن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعًا، كلُّ قطعة منها صارت سيَّارًا من السيارات طافت حول الشمس، وبقيت في قبض جذبها، والأرض واحد من هذه السيارات فهي بنت الشمس، والشمس هي المركز لكل هذه السيارات».اهـ.

أما أن العلماء قالوا ذلك فلا حرج علينا - نحن أبناء القرآن - أن ننظر فيما قالوا، بل يجب علينا أن ننظر فيما قالوا؛ لنعلم علمه، ونعرف - بقدر ما نستطيع - مصادر ما قالوا وموارده.

وأما أن الكتاب الكريم ـ القرآن طبعًا ـ قرّر ـ هكذا بصيغة الجزم القاطع، والإيمان المتيقن ـ ما قال أولئك العلماءُ، فهذا ما كان ينبغي لهذا الإمام في عصره أن يتحرز من التصريح الجازم به؛ لأنه يجعل من القرآن الكريم كتاب نظريات تجريبية تخضع لتطورات الكشوف العلمية التي تُبطِل اليوم ما كان بالأمس من الحقائق المقرَّرة، وتصحِّح اليوم ما كان بالأمس من الأساطير الباطلة، ولا شك أن هذا أخطر ما يُعرِّض القرآن الكريم للهزات الفكرية التي تتراقص بها التجارب الإنسانية في ميادين الظواهر الكونية.

ومن أعجب العجب أن هذا العالِم الجليل يقرر صراحة ـ لا تحتمل التأويل ـ أنه لا ينبغي تعريض القرآن لآثار الهزات الفلسفية، وذلك حيث يقول تحت عنوان «غرور المسلمين بالعقل والفلسفة» «وجُدِ خلاف بين المسلمين في العقائد والأحكام الفقهية، ووُجِد مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع إليها، وتأويله لبعض النظريات العلمية التي لم يَقِر قرارها، وذلك خطر عظيم على الكتاب؛ فإن للفلاسفة أوهامًا لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى، والنظريات التي لم تستقر لا يصح أن يرد إليها كتاب الله».

هذا نص كلام الشيخ الجليل.

فهل انفصال الأرض من السماوات أو من الشمس من النظريات العلمية التي قرَّ قرارها إلى درجة القطع اليقيني؟ فلا يكون في تأويل القرآن ورجعه إليها خطر على هذا الكتاب الإلهي العظيم؟ أو أن الضعف البشري في لزومه لجميع أفراد البشر - مهما علا قدرهم - آية من آيات الله تعالى على تفرد الكمال المطلق.

وقد يتساءل متسائل: أين قرر القرآن أن الأرض كانت جزءًا من السماوات ثم انفصلت عنها إثر حادث كوني؟

في القرآن الحكيم آية واحدة هي التي يتشبث بها أصحاب هذه النظرية الانفصالية، وهي قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾

[الأنبياء: ٣٠].

وهذه الآية قرأها المؤمنون منذ نزلت على رسول الله ﷺ

وَفَهِمها مَن فَهِمَهَا قبل ظهور نظرية الانفصال الأرضي، ومَن لم يفهمها لم يسكت على جهله بها بل سأل أهل الذكر ففسروها بما يتلاءم مع هداية القرآن؛ روى أبو نعيم عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن رجلًا سأله عن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما؟ فقال له ابن عمر: اذهب إلى ابن عباس، فاسأله، ثم تعالَ فأخبرني، فذهب الرجل، فسأل ابن عباس، فقال له ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: كانت السماوات رتقًا لا تمطر، وكانت الأرض رتقًا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يعجبني جراءة ابن عباس، على تفسير القرآن، فالآن علمت أنه أوتي علمًا».

فما الذي يدعو إلى عدم صحة هذا التفسير؟ وما الذي يدعو إلى استبعاد احتمال الآية له إن لم يكن هو المعنى القريب في أُسلوب الهداية القرآنية؟ فلو أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قرر أن أسلوب الآية صالح لفهم ما يقرره العلم الصحيح مع صلاحيته لفهم ما قرره أئمة الإسلام في معنى الآية لكان ذلك أكثر ملاءمة لمقامه العلمي، ولكان أنسب مما قرره من عدم تعريض القرآن للهزات العلمية المستحدثة.

فالقرآن لم يقرر قط النظرية الانفصالية بين الشمس والأرض، ولكنه - وهو في أفقه الأعلى من براعة البيان المُعجِز - تحدث عن السماوات والأرض - في صدد بيان جلال القدرة الإلهية - حديثًا صبَّه في إطار لا يناقِض علمًا ثبت أو يثبت ثبوتًا لا يخالجه ريب، ولا تتوارد عليه الشُّبَه والشكوك.

على أن المتتبع لحديث القرآن عن السماوات والأرض يراه يذكر الأرض في مقابلة السماوات بصورة قد تدل بفحواها - إن لم يكن بظاهرها - على استقلال الأرض في خلقها كوكبًا تعيش عليه الحياة الخاصة بِمَنْ عليه وما عليه وما فيه من الموجودات، بل إن القرآن ينفسح لأكثر من هذا في دلالة ظاهره على استقلال خلق الأرض عن السماوات، فهو يقول في سورة «فصلت»:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا
ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا
وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ
اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ
كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ

فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ٩-١٢]

فهذه الآية الكريمة ظاهرة الدلالة على أن الأرض خُلِقَتْ خلقًا مستقلًا عن السماوات، وجُعِلَتْ فيها الجبال الرواسي لحفظها أن تميد فتختل الحياة فوقها، وأن الله بارك فيها بما شاء من أنواع البركة في إعدادها وتهيئتها للحياة، وأنه قَدَّر فيها أقواتها، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حدد لذلك الخلق مع ما يتبعه مما ذكر ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أوقاتًا خاصة معينة عنده مقربة لعقولنا مما نعرف ونألف.

ثم ذكر ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ طورًا من خلق السماوات ذِكْرًا مستقلًّا بحرف يفيد عند أهل اللغة الوجود المتراخي؛ لتقريب مراتب الخلق لعقول الخلق التي لا تدرك إلا ما عرفت وما ألفت وما يصح قياسه على المعروف لها المألوف - وشأن الله أعظم من مدركات العقول - وأخبرنا أن السماوات كانت دخانًا فخوطبت - كما شاء رب العالمين في خطابه لأصناف خلقه - هي والأرض معًا، ثم ذكر أنه أحكم خلق السماوات وأكملها سبعًا من العنصر الذي أخبر أنها كانت عليه وهو الدخان، وأنه خص السماء الدنيا

ـ التي هي أقرب السماوات في ترتيبها الذي اقتضته إرادته ومشيئته ـ بزينة المصابيح من اللوامع، وجعل فيها شُهُبًا لحفظها، ثم أثنى على نفسه بما هو أنسب صفاته وأسمائه بهذا المقام فقال جلَّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ١٢﴾ وكلمة ﴿تَقْدِيرُ﴾ في هذا المقام لا توجد كلمة تؤدي المقصود منها غيرها، والاسمان الكريمان ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ هما منبع الفيض بما اشتملت عليه الآيات من معانٍ مُنَزَّلة من خزائن القهر والجود.

على أنه لا ذِكْر في القرآن الكريم للشمس باعتبارها السماء التي انفصلت عنها الأرض ـ كما يقول العلم في نظريته ـ بل المذكور السماوات بعنوانها ومفهومها الشرعي الذي لا يُفْهَمُ منه إرادة الشمس إلا بضرب متعسف من التأويل، والشمس في القرآن الكريم تذكر مقابلة للقمر وقرينة له باعتبارهما كوكبَيْنِ مغايِرَيْنِ للسماوات بمفهومها الشرعي.

فنظرية انفصال الأرض عن الشمس لم يقررها القرآن الحكيم، فلا تصلح تفسيرًا لآياته على أنه هو المعنى الذي يتحتم في فهم تعبير البيان القرآني.

# الهداية القرآنية

- في تفسير رتق السماوات والأرض وفتقهما.
- الشيخ/ محمد عبده، وتفسير سورة الفيل.
- الشيخ/ محمد عبده، وتفسيره في خلق الملائكة.
- المتحمسون لنظريات العلم المستحدَثة والتحريف.

ولو أن الناظرين في هداية القرآن أمعنوا النظر في مقاصد هذه الهداية لوجدوا أن تفسير رتق السماوات والأرض وفتقهما بما رُوي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وتلقاه الأئمة بالرضا والقبول أقرب إلى تحقيق تلك المقاصد؛ لأنه المعنى الذي يفهمه كل مَن يتجه إليه بنظر الحسِّ والعقل من عامة الناس وخاصتهم.

وتفسيرُ آية رتق السماوات والأرض بنظرية الانفصال الشمسي التي قال بها العلم المستحدث ـ بعيدٌ عن مقاصد الهداية القرآنية، لا يفهمه من أسلوب البيان القرآني إلا مَن قَصَدَه مُتأوِّلًا، ولا يفهمه علميًّا إلا أخص الخاصة من العلماء الكونيين، والقرآن لم ينزل بهدايته لهؤلاء العلمانيين(١) وحدهم، وإنما نزل لهداية البشرية كافة على مستويات عقولهم وثقافتهم.

ولقد كان الشيخ الإمام/ محمد عبده ـ وهو الشعلة المضيئة في إنارة الطريق لتجديد تفسير القرآن والعودة به إلى بيان الهداية القرآنية ـ حذرًا في لباقة عندما عرض لمثل هذا التأويل العلمي في بعض آيات القرآن؛ فنراه في تفسير سورة «الفيل» يجعل معنى آياتها

(١) إشارة إلى العِلْم.

في عبارة موجزة تُصوِّر ما في السورة من هداية وَعِظَةٍ ثم يقول: «وكان يمكننا أن نكتفي بذلك المعنى من الآيات، ولا نزيد عليه أدنى تفصيل، وهو كافٍ في الاعتبار والعِظَة»، وَلَيْتَهُ فعل وسكت عند هذا، ولكنه تابع الكلام، وذكر ما قال إنه تواتر من الواقعة إلى أن قال: «وفي اليوم الثاني - أي لخروج أهل مكة فزعين إلى شعف الجبال بعد ما بلغهم خبر جيش الفيل - فشا في جند الحبش داء الجدري والحصبة»، وذكر قولًا عن عكرمة أنه هو أول جدري ظهر ببلاد العرب، ثم ذكر قول يعقوب ابن عتبة أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام.

ثم عقَّب على ذلك بقوله: «هذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به، وقد بيّنت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح.

فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض... وأن كثيرًا من هذه

الطيور الضعيفة يعد من أعظم جند الله في إهلاك مَن يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بـ: «الميكروب» لا يخرج عنها. اهـ ملخصًا.

وحديث الجدري والحصبة في هذا المقام حديث مُقحَم متهافِت ما كان ينبغي أن يعوِّل عليه مثل الشيخ ـ على جلالة قدره ـ في تفسيره القرآن الحكيم في سورة يبدؤها الله بصيغة التعجيب والتعظيم لِصُنْعِهِ بما أنزله بهؤلاء الطغاة الجبابرة تَقْدِمَةً لمبعث نبيه ﷺ.

وقد عَرَضَ لبيان تهافت هذا الرأي قديمًا «ابن الأثير» في تاريخه «الكامل» فقال: «وقال كثير من أهل السير: إن الحصبة والجدري أول ما رؤيا في بلاد العرب بعد الفيل، وهذا مما لا ينبغي أن يعرج عليه... فإن هذه الأمراض... قبل الفيل منذ خلق الله العالم».

وقول الشيخ الإمام ـ بعد أن ذكر حديث الجدري والحصبة ـ: «هذا ما اتفقت عليه الروايات» غريبٌ في باب العلم، وَعَجَبٌ في تفسير القرآن؛ لأن الروايات لم تتفق على هذا، بل ذكرت بعض

الروايات أن هذه الطير كانت أشبه ما تكون بالطير المسمى بالخطاف، وهو طائر من طيور الليل، وبعض الروايات ذكرت أنها تشبّه بالوطاويط، وبعضها ذكر أنها أشبه باليعاسيب، وهي ذكور النحل وأمراؤها، وقد أقبلت من جهة البحر في جماعات إثر جماعات تحمل في مناقيرها وأرجلها حجارة صغيرة في حجم الحمصة أو حصى كحصى الخذف، فألقتها على الجيش الظالم فتساقط هلاكًا وفناءً، فأي محال يترتب على تجويز ذلك؟ وبه تبقى السورة على ظاهرها، فيبقى الحادث على وضعه الإعجازي إرهاصًا للنبوة الخاتمة، وقد قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ـ بعد ذكر بعض الروايات ـ: «وهذه أسانيد صحيحة».

أوليس هذا أقرب إلى الأسلوب العربي من حديث الجدري والحصبة والذباب والبعوض والميكروب؟ وهل في عُرْفِ اللغة العربية واستعمالاتها إطلاق لفظ «الطير» على الحيوان المسمى بالميكروب؟! فهل كان القوم المخاطبون في وقت المواجهة بالخطاب التعجيبي الذي افتُتِحَتْ به السورة يعلمون شيئًا عن هذا الحيوان المُسمَّى بـ: «الميكروب»؟!

وقولُ الشيخ: «وقد بيّنتْ السورةُ الكريمةُ أن ذلك الجدري وتلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة»، إغراقٌ في الغربة عن العلم، وإيغال في العجب أن يكون ذلك في تفسير القرآن، وأين تعرضت السورة الكريمة لذكر الجدري والحصبة، بله بينت أنهما من حجارة يابسة، والسورة بين دفتي المصحف كاملة كما أُنزلت، يتلوها الناس ويقرؤها القَرَأة من حفظة القرآن، وليس فيها إشارة من بعيد أو قريب إلى الجدري والحصبة؟!

وقد فرع «الشيخ» على ما فرضه واقعه من حديث الجدري والحصبة أنه يجوز لِمَن يريد فهم معاني القرآن ليؤمن بها أن يعتقد أن هذا الطير الذي أرسله الله على أصحاب الفيل من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم الأمراض، وأن هذا الحيوان الذي يُسمَّى بـ: «الميكروب» من هذه الطير.

أليس هذا تحميلًا لآيات القرآن فوق طاقة أساليب العربية، وفوق طاقة إفهام مَن نزل القرآن لتعجيبهم من شأن هذه الحادثة المبدعة إرهاصًا لمقدم بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ؟!

لقد كان حديث الجدري والحصبة ـ على تهافته ـ أيسر أمرًا من

حديث «الميكروب» وأنه من الطير الذي أرسله الله على جيش الفيل، وهو ضرب من التعسف في التأويل المتملق لنظريات العلم المستحدثة، وهو مذهب لكثير من المجددين في تفسير القرآن، والمتسورين على تبيين مفاهيم الإسلام الذين يرفضون قبول الخوارق المادية، سواءً أكانت إرهاصًا قبل النبوة أم معجزات بعد الرسالة، فكان من الحق على الشيخ الإمام ـ في مكانه من الفضل والعلم ـ ألا يفتح لهؤلاء باب التأويل الذي يدخلون منه إلى التحريف.

والأستاذ الإمام الشيخ/ محمد عبده، يسلك هذه الطريقة التي تبدأ ببيان الهداية القرآنية في الآيات بيانًا لا يستطرد ولا يتعسف في التأويل، ثم يبدو له أن يتولج إلى مداخل التأويل الذي يبعده عن اختياره لمذهب السلف، ولكنه لا يبقى به مع الخلف في الوصول إلى نتائج مذهبهم.

ويستبين ذلك بصورة واضحة في تفسيره ـ الذي نلخصه في تفسير تلميذه صاحب المنار، وقد أسنده إليه صراحة ـ لآيات قصة آدم، وجعله خليفة، وحوار الملائكة في هذه القصة، وأَمْرِهم

بالسجود لآدم، وإباء إبليس عن هذا الأمر الإلهي استكبارًا وعتوًّا.

فبعد أن ذكر الشيخ مذهب السلف والخلف في المتشابهات، وذكر أن آيات هذه القصة منها ما لا يمكن حملها على ظاهرها، وصَرَّح بأنه على مذهب السلف في وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بصفات الله تعالى وعالم الغيب، ذكر رأي السلف والخلف في حقيقة الملائكة بعبارة مبسوطة وافية... إلى أن قال: «الملائكة خلق غيبي لا نعرف حقيقته، وإنما نؤمن بإخبار الله تعالى الذي نقف عنده ولا نزيد عليه، والقرآن ناطق بأن الملائكة أصناف، لكل صنف وظيفة وعمل، وأن إلهام الخير والوسوسة بالشر قد أُسنِدَا إلى هذه العوالم الغيبية، وخواطر الخير التي تسمى إلهامًا، وخواطر الشر التي تسمى وسوسة كل منهما محله الروح، فالملائكة والشياطين إذن أرواح تتصل بأرواح الناس».

وهذا - لو وقف عنده الشيخ - كان كافيًا في بيان الهداية القرآنية التي تُفَسَّر الآيات في هذه القصة في ظلها لكن الشيخ تابع السير، فقال: «وذهب بعض المفسرين مذهبًا آخر في فهم معنى الملائكة، وهو أن مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال

من إنماء نبات، وخلقة حيوان، وحفظ إنسان، وغير ذلك؛ فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، وهو أن هذا النمو في النبات لم يكن إلا بروح خاص نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة، وكذلك يقال في الحيوان والإنسان، فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده، فإنما قوامه بروح إلهي سمي في لسان الشرع ملكًا، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمي هذه المعاني القوى الطبيعية، إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة...

إلى أن يقول الشيخ: فإذا صح الجري على هذا التفسير فلا يُستبعَد أن تكون الإشارة في الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها، وجعل كل صنف من القوى مخصوصًا بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ما حُدِّد له من الأثر الذي خُصَّ به، خلق الإنسان وأعطاه قوة يكون بها مُستعدًّا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الأرض، وعبَّر عن تسخير هذه

القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير، وجعله بهذا الاستعداد - الذي لا حد له، والتصرف الذي لم يُعْطَ لغيره - خليفة الله في أرضه؛ لأنه أكمل الموجودات في هذه الأرض، واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبَّر عنها بإبليس، وهي القوى التي لزها الله بهذا العالم لزًا، وهي التي تميل بالمستعِد للكمال أو بالكامل إلى النقص، وتعارض مد الوجود لترده إلى العدم...» ثم قال الشيخ: «ولو أن نفسًا مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين ما يمنعها من ذلك».

إن هذا الطريق في تفسير آيات القرآن الحكيم بتسليط التأويل على كل ما يتعاصى فهمه على بعض العقول وإحالة أو استبعادِ ظاهر المعنى إلى ضرب من التمثيل - هو الذي يُخْشَى أن ينفذ منه «المتقرمطون»[1] إلى تحريف كَلِمِ الله عن مواضعه؛ ابتغاء فتنة الجماهير من عامة المؤمنين.

وهل تسور المتحمسون لنظريات العلم المستحدثة في هذا

(١) إشارة إلى فرقة (القرامطة) الذين بالغوا في التفسير الإشاري والباطني لآيات القرآن الكريم.

العصر على آيات القرآن يحرفونها عن مقاصد الهداية إلى تحميلها مقاصد تخضعها لتطبيق تلك النظريات التي لا تزال في مهب رياح البحث إلا من طريق التعسف في التأويل؟!

إن هذا القرآن العظيم أنزله الله تعالى بلسان عربي مبين، هدى للناس ورحمة، ولم ينزله بالإشارات والرموز والإيحاءات بيد أن القرآن نفسه أخبر أن منه آيات محكمات، هي جِمَاعُهُ[1]، أُحْكِمْنَ بالبيان والتفصيل لِمَا جُعِلْن أدلة عليه من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وثواب وعقاب، وأَمْر وزجْر، وخَبَر ومَثَل، وَعِظَةٍ وَعِبْرَة.

وأن منه آيات متشابهات وهي - كما يقول الطبري ناقلًا عن الصحابة والتابعين - «كل ما لا حاجة إلى العباد بمعرفته، واستأثر الله بعلمه ووقته، وإنما أُنزل امتحانًا لقوة إيمان المؤمنين وعبودية العابدين».

وآيات قصة الملائكة مع آدم أبي البشر وجَعْلِه خليفة في الأرض لا تخرج من قسمي القرآن العظيم، فهي إما من المحكم الذي عَلِمَه أصحاب رسول الله ﷺ وعَلِمَه علماء الأمة وأخبروا به

(١) جِمَاعُهُ: أي جمعت أحكامه وفَصَّلتْهُ.

وبينوه للناس، وإما من المتشابه الذي علموا أن الله استأثر بعلمه فأمسكوا عن الخوض فيه؛ لئلا يُلبسوا على الناس دينهم ويوقعوهم في مزالق الفتن المضلة.

ومهما يكن من أمر؛ فإن الثروة الضخمة التي أخرجها أئمة الإسلام قديمًا وحديثًا في تفسير القرآن تدلنا على مقدار العناية التي أُحيط بها هذا الكتاب الحكيم مما لم يكن مقدورًا على أعظم منه في عصوره وبيئاته، ولو أنه أتيح لعلماء المسلمين اليوم أن يجمعوا في مكتبة قرآنية جميع ما أُخرِج من التفاسير لِيُنْتَقَى منها تفسيرٌ واحدٌ يُقْتَصَر فيه على بيان هداية القرآن بيانًا شاملًا يجمع ضروبها لكان للأمة الإسلامية منها تفسيرٌ جامع لما تتطلبه البشرية في حاضرها، بل أكاد أقول في مستقبلها، ولكن هذا ليس في حيز الإمكان عمليًّا لأسباب لا تخفى.

فهل يسلمنا ذلك إلى اليأس؟! فنقف ننغض رؤوسنا حيارى لا نتقدم إلى هذا الكتاب الأكرم نستهديه ونستلهمه مستعينين بما خلف لنا سلفنا من أُصول ودعائم نهض وينهض على ركائزها تفسير القرآن الحكيم بما يحقق للأمة الإسلامية خلافتها في

الأرض وحَمْلَها راية الريادة في تطلعات الإنسانية إلى آفاق العزة؛ تحقيقًا لقوله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران: ١١٠]

وقوله تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾[النور: ٥٥].

# في سبيل دراسة متحرِّرة لا متحلِّلة

- الآيات الكونيّة في القرآن.
- نظرٌ تفصيليٌّ في عموم الجزئيّات.
- الراسخون في العلم.
- الرازي، ومحاولاته في فهم الآيات الكونية.

ولقد كان من بشائر الأمل المشرق هذا الإحساسُ الذي ينتاب الدارسين القرآنيين في سبيل دراسة إسلامية متحرِّرة لا متحلِّلة، دراسةٍ تَصِلُ حاضرنا الناهض بماضينا الأول المجيد، دراسةٍ تعتمد على أن المنبع الفياض -بالأفكار والعلوم والمعارف والحقائق القوية الهادية إلى الله تعالى المحقِّقة لسعادة البشرية حيثما كانت في ظل راية الإسلام- هو القرآن الكريم.

ومن هنا، كان على الذين حَمَلوا ويَحْملون عبء الدراسات القرآنية أن يجعلوا من القرآن الكريم ظُلَّة تنطق بالمعرفة والعلوم والأفكار، وأن يتخذوا منه هاديًا ومنبعًا لقيام بحوث تنهض بالمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وتمدهم بمطالب الحياة حتى لا تكون بهم حاجة إلى غيرهم إلا عن طريق تبادل الأنداد والزملاء للأفكار والعلوم والمعارف.

وقد عرَفنا الجوانب التي اتسع فيها الباحثون والمفسرون حتى تزيَّدوا فيها إلى أكثر مما تدعو إليه حاجة الناس أولًا، وأشرنا إلى الجوانب التي ظلت مغلَقة لم تُفتَح أبوابها إلا بمقدار ما يدخل

الهواء للتنفس وحفظ الحياة، وهذا الجانب يتمثل أولًا في الآيات الكونية التي ساقها القرآن الكريم؛ لتوقظ العقل الإنساني بعد أن بلغ رشده في التفكير، ولتقوده إلى آفاق الهداية الإلهية عن طريق معرفة أسرار الكون؛ ليعرف عن طريقها عظمة الله وجلال كبريائه، ويهتدي بها إلى ما وضع الله فيها من منافع العباد ومصالح الخلق لتحقيق سعادتهم في هذه الحياة.

ويتمثل ثانيًا في الآيات التي تتحدث عن بعض جوانب المجتمع البشري، وما يحقق العدالة فيما يقوم بين أفراده وجماعاته وأُممه وشعوبه من تفاعلات وتناقضات في الوسائل والأهداف، مما ينشأُ عنه ألوان من التصادم الفكري أو المادي، ويقتضي نظامًا يرد الشاردين عن حظيرة العدل إلى ساحته، ويثبت دعائم الحق في قواعدها.

أما الآيات الكونية فالقرآن الحكيم قد ربطها بالعقل وجعله وسيلة فهمها والوقوف على مراميها؛ لأن الله تعالى أمد الإنسان بسلطان العقل، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض، ودعاه إلى كشف أسرار الوجود ببذل أقصى الطاقة البشرية التي أودعها

الله فيه؛ ليعرف جلال الله تعالى في عظمة ملكه، وعظيم قدرته في إتقان خلقه، وحكمته في بديع صنعه، ورحمته في لطيف تدبيره، فالقرآن حين يقول:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾[البقرة:٢٩]

وحين يقول:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾[الجاثية:١٣]

وحين يقول:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾[لقمان:٢٠]

إنما يقصد إلى تنبيه العقل الإنساني ليعرف مهمته في الحياة، وفي قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم﴾، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم﴾ نصٌّ لا يحتمل التأويل

بأن الله تعالى ينبه العقل البشري -في كافة أفراده- إلى أن خَلْقَ هذا الكون -بجميع آياته السماوية والأرضية، وتسخير ما فيه من عناصر الحياة ومظاهر النعم- إنما كان لأجل الإنسان الذي كرمه الله تعالى بخصيصة العقل وفضله به على كثير مِن خَلْقِهِ لينتفع به، ولا شك أن الانتفاع بالشيء لا يتم ولا يتحقق إلا بعد معرفة منافعه وفوائده، وهذا يقتضي البحث عن منفعة وفائدة كل مخلوق من مخلوقات الله في الحياة التي امتن الله بخلقها وتسخيرها للإنسان، ومعرفةُ فائدة المخلوقات ومنافعها لا تتحقق إلا بعد معرفة حقائقها تفصيلًا؛ لأن معرفة الحقيقة تُرشِد إلى مواطن الانتفاع، وهذه مهمة تستنفد أعمار الأحياء في هذه الحياة، فالبحث عن حقائق المخلوقات -سماوية أو أرضية- هو في نظر القرآن مهمة الإنسان ما دام على ظهر هذه الأرض؛ لأنه وسيلته لاستخلاص أكبر قسط من المنافع المادية والروحية التي يحيا بها حياة طيبة، يغمره فيها الإيمان بجلال الخلَّاق العظيم، يقول الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾

[البقرة:٢٩]

«وأما قوله ﴿لَكُم﴾ فهو يدل على أن المذكور بعد قوله ﴿خَلَقَ﴾ لأجل انتفاعنا في الدين والدنيا؛ أما في الدنيا فَلِيُصْلِح أبداننا، ولنتقوَّى به على الطاعات، وأما في الدين فللاستدلال بهذه الأشياء والاعتبار بها، وجَمَعَ بقوله ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ جميع المنافع؛ فمنها ما يتصل بالحيوان والنبات والمعادن والجبال، ومنها ما يتصل بضروب الحِرَف والأمور التي استنبطها العقلاء، وبَيَّن لنا تعالى أنَّ كل ذلك إنما خلقه لكي ننتفع به».

ومما يجري مجرى إيقاظ العقل الإنساني وتنبيهه إلى تعمق الوجود وكشف حقائقه، وتعرف آيات الله في عناصر ذلك الوجود المفعم في كل ذرة من ذراته بالأسرار قولُ الله تعالى:

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ٢٢﴾[الروم:٢٢]

ولُبَابُ هذه الآيات وخلاصة حكمتها تجمَّع - بعد نثره في مفرداتها

وجملها - وكان في فاصلتها - لأن تخصيص ﴿ٱلْعَـٰلِمِينَ﴾ بالذكر في هذه الفاصلة توجيه لذوي العقول المستضيئة بنور العلم إلى البحث عن أسرار آيات الله الكونية في آفاق السماوات وأرجاء الأرض؛ لكشفها ورفع الحُجُب والأغطية عن حقائقها؛ لتقع من الحياة موقعها، وينتفع بها الأحياء؛ لأنها مخلوقة لأجلهم حتى تظهر خصيصة العلم في العلماء ويمتازوا بها عن سائر العقلاء؛ لانفرادهم بإدراك حقائق آيات الله الكونية التي نَصَبَها الله حجة على وجوده وإحاطة سلطان قدرته وعلمه، وهذا ما ذكره تعالى:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

[العنكبوت:٤٣]

تسجيلًا لامتياز العلماء القائمين بحجة الله على الخلق في الأرض، وبيانًا لتفوقهم على مَن بايَنهم في المعارف من سائر العقلاء؛ لإدراكهم ما وراء حُجب الحس المادي فهمًا لمرامي إشارات الله تعالى في دلائله الآفاقية والأنفُسية، وقد جاءَ التصريح ببعض مظاهر هذا الامتياز الذي اختُص به العلماء بالله لإدراكهم أسرار آياته الكونية في سورة «فاطر»؛ حيث أثنى عليهم هذا الثناء الذي

تنقطع له أعناق الربانيين فوصفهم باختصاصهم بخشيته فقال:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾

[فاطر:٢٨]

وسياق هذه المدحة العظيمة بَيِّن جَلَيٌّ في أن المراد من العلماء المُميَّزين بهذا المقام هم العلماء بالله الذين عَرَفوه بمعرفة آياته في خلقه معرفة تقوم على إدراك أسرار ظواهر ما خلق من أشياء، والمتأمِّل في موقع هذه المدحة مما سبقها يفهم مَن هم العلماء في هذا المقام، يقول عزَّ شأنه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

[فاطر:٢٧-٢٨]

فالذين عَلِمُوا بعد البحث حكمةَ الله في إنزال الماء من السماء، وكيفية تجمع هذا الماء في أماكن تجمُّعِه، والذين عَلِموا بديع

صنيع الله تعالى في إحداث ما يحدث من تفاعلات العناصر الحية في باطن الأرض بعد إنزال الماء عليها حتى تتكون فيها أجنة الثمرات المختلفة في طعومها وألوانها وأشكالها ومقاديرها فتخرج بإذن الله طيبة شهية نافعة كما قال تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج:٥]

وكما قال تعالى:

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾[الرعد:٤].

والذين عَلِمُوا صنع الله وعظيم قدرته في خلقه، ونظروا نظرة تدبُّر إلى خلق الجبال وتلوينها إلى طرائق مختلفة وطبقات متنوعة الألوان والمنافع بين بيض وحمر وسود غرابيب، والذين ينظرون نظرة تدبُّر في خَلْق الناس وتكوينهم، وفي الدواب وخلقها، واختلاف الألوان في الناس والدواب ـ هم الذين يصدُق عليهم وصف العلماء بالله الذين يعرفونه بجلاله حقَّ معرفته، ويخشونه

حق خشيته، فعلماء طبقات الأرض والمعادن، وعلماء الزراعة واستنبات الأرض، وعلماء الاجتماع والأجناس ومعرفة أصناف الناس ومعرفة أطوار البشر في مختلف مراحل التاريخ ومدى تأثير البيئة والطبيعة على ألوانهم وحياتهم، وعلماء الحيوان ومعرفة أنواعه في البر والبحر، هؤلاء العلماء بأسرار الخلائق إذا قامت معرفتهم على دعائم الإيمان بالله تعالى هم الذين يقصدهم القرآن الكريم بهذه المدحة المنيفة التي ساقها القرآن العظيم بصيغة الاختصاص؛ تنبيهًا على مكانة الراسخين في معرفة أسرار آيات الله في الكون.

والقرآن الكريم أَكْثَرَ جدًّا من الآيات الكونية، لكنه ساقها في أساليب مختلفة، وألوان شتى من التعبير، يُفصِّل مرة، ويُجمل أخرى، ولكل مقام مقال، يذكر الشيء مع قرينه وصاحبه ثم يفرده ليذكر حكمته المستقلة بوجوده ودلالته، ثم يعود إلى صاحبه فيذكره بحكمة استقلاله في القيام بحق الحجة النيرة والبرهان المستقيم، يجمع مرة الآيات السماوية إلى الآيات الأرضية في إطار واحد، وأخرى يذكر الآيات الأرضية منفردة للتنبيه على عموم الاستدلال بها؛ لقربها من مشاهد الحس المُمِدِّ للعقل العام عن

طريق الحواس، والحواس هي النوافذ التي يستطيع العقل أن يدرك بوساطتها ـ في أوائل خطوه نحو الحقائق الكونية ـ الروابط العنصرية والوشائج الطبيعية بين ذرات الموجودات على تنوع أشكالها واختلاف أنواعها، فَيَحْكُم ويستنبط ويتهدَّى.

وقد يفرد القرآن الآيات السماوية بالذكر تنبيهًا لأهل الاختصاص من العلماء لينقلهم على سفائن الفكر من عالم الأرض إلى آفاق السماء؛ لينظروا إلى ما أودع الله فيها من آيات أجل وأعظم مما أودع في الأرض، مع تيسير السبيل للعامة في النظر المتأمِّل الذي يحرك وجدانهم ويوقظ إحساسهم؛ لتتوثق عرى الإيمان الفطري في قلوبهم.

والمقام هنا لا يتسع لاستيعاب الآيات الكونية التي جاء بها القرآن الحكيم؛ لكثرتها واختلاف مساقاتها، وهي مبثوثة فيه، تنساب في محيطه، وتتخلل سُوَرَه، فقلما تخلو سورة من سوره الكريمة من لون من ألوانها أو لفتة إلى ظاهرة من ظواهرها.

وحسبنا أن نشير ـ على سبيل المثال والشاهد ـ إلى قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورة البقرة:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[البقرة: ١٦٤].

وإلى قوله جل شأنه في سورة آل عمران:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[آل عمران: ١٩٠].

ففي الآية الأولى تفصيلٌ بالتنصيص على آيات هي دلائل قاطعة على وجود الله وقدرته وحكمته، وهي أيضًا نعمٌ من الله على عباده ينتفعون بها في معاشهم، وذلك أنجع في البيان، يقول القاضي عبد الجبار -أحد الذين انتهت إليهم زعامة الفكر الاعتزالي في عصره- في كتابه «تنزيه القرآن عن المطاعن»: «إن سائر الأجسام والأعراض وإن كانت تدل على الصانع فهو تعالى خص هذه الأشياء الثمانية بالذكر في هذه الآية؛ لأنها جامعة بين كونها دلائل

وبين كونها نِعَمًا على أوفر حظٍّ ونصيب، ومتى كانت الدلائل كذلك كانت أنجع في القلوب وأشد تأثيرًا في الخواطر» اهـ.

ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥]

ففيه إرشاد إلى النظر التفصيلي بما اشتمل عليه من تعميم الجزئيات في قوله ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ وقد جاء هذا التعميم الكلي في قوله ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لبيان أن جملة الكون دليل قاهر على وجود الصانع الحكيم، وأن كل ذرة من ذراته برهان مستقل في الدلالة عليه سبحانه، والدليل الإجمالي يناسب العوام ومَن كان على شاكلتهم في عدم الخوض في بحار الدلائل الكونية بالتفصيل، والدلائل التفصيلية تُناسِب العلماء والحكماء الذين أحكم العلم تفكيرهم.

وعلى ضوء هذا؛ ننظر في قوله تعالى من سورة يونس:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾

[يونس:٣]

لنجد إجماله مُفَصَّلًا بعض التفصيل المنبِّه على مواطن الهداية والاستدلال بذكر آيات النعم، وبيان جهات المنافع في تسخيرها وذلك في قوله تعالى من السورة نفسها:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾[يونس:٥]،

وتأمّل قوله: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾، وقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾، وقوله ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أفيفرد القرآن الحكيم - وهو بصدد إقامة البرهان على عظمة ملك الله وجلال ملكوته - الشمسَ بخصيصة الضياء ويخص القمر بوصف النور لغير حكمة كونية ترجع إلى طبيعة كل من الكوكبين؟ وهل يتم الاستدلال بهما على الغرض الذي سيقا بوصفهما لإثباته دون معرفة العلة الكونية في هذه التفرقة؟ وإذا كان ذلك كذلك

أفلا يكون من البداهة أن يطلب من القوَّامين على فهم القرآن أن يحيطوا علمًا بالظواهر العلمية الطبيعية التي تميِّز طبيعة النور عن طبيعة الضياء حتى يمكن فهم الآية على حقيقتها التي أنزلها الله في كتابه من أجلها؟ ثم ألا يكون من البداهة - لأجل فهم الآية فهمًا مُثمِرًا - أن يطلب من القوَّامين على دراسة القرآن أن يحيطوا علمًا بقدر الطاقة البشرية ببعض الظواهر الطبيعية للشمس التي جعلها الله ﴿ضِيَآءً﴾ وببعض الظواهر الطبيعية للقمر الذي جعله الله ﴿نُورًا﴾ حتى يتبين للدارسين وَلِمَن ينقلون إليهم معاني القرآن في آياته الكونية موقعُ وصف كل من الكوكبين - بوصفه الملائم لطبيعة موقعه، ومن هنا تجيءُ نتيجة البرهان على صدق الدعوة لتخصيص كل كوكب بوصفه المنبعث من طبيعته التي خلقه الله عليها بحكمته واختياره.

إن بعض حكماء الإسلام وعلمائه لم يغفلوا هذا النظر عند دراستهم لآيات القرآن الكونية باعتبارها دلائل أقامها الله تعالى على وجوده وباهر قدرته وجلال كبريائه، بل خاضوا بحارها بقدر ما وسعها علمهم ومعارفهم، ووسائل الفكر والمعرفة في

عصورهم؛ يقول الإمام الرازي في تفسيره: «الاستدلال بأحوال الشمس والقمر على وجود الصانع المقدِّر هو أن يقال الأجسام في ذواتها متماثلة، وفي ماهيتها متساوية، ومتى كان الأمر كذلك كان اختصاص جسم الشمس بضوئه الباهر وشعاعه القاهر، واختصاص جسم القمر بنوره المخصوص لأجل الفاعل المختار»، ثم ذهب الرازي يبين تساوي الأجسام وماهيتها في الحجمية والتحيز والجرمية على طريقته وطريقة عصره فقال: «وإذا ثبت أن الأجسام متماثلة في ذواتها متساوية في ماهيتها كانت متساوية في جميع لوازم الماهية، فكل ما صح على بعضها وجب أن يصح على الباقي؛ فلما صح لجرم الشمس اختصاصه بالضوء الباهر القاهر، وجب أن يصح مثل هذا الضوء القاهر لجرم القمر وبالعكس، وإذا كان ذلك كذلك يجب أن يكون اختصاص جرم الشمس بضوئه القاهر واختصاص القمر بنوره الضعيف بتخصيص مُخصِّص وإيجاد مُوجِد، وتقدير مُقدِّر، وذلك هو المطلوب».

وتقريب كلام الإمام الرازي وأُسلوبه الاصطلاحي لأذهان

عصرنا أن المادة في حقيقتها الأولى واحدة في ذاتها وخصائصها، فإذا عرض لبعض جزيئاتها اختصاص بطبيعة خاصة تقبل بسببها بعض اللوازم والعوارض والأوصاف وتختص بها كاختصاص الشمس بالضوء، واختصاص القمر بالنور كان ذلك بقوة قادر مختار يعطي لخلقه ما يشاءُ من الخصائص الدالة على إطلاق مشيئته، وهذا هو الغرض الأصيل الذي سيقت الآية لإثباته وتحقيقه في البرهنة على قدرة الله، ووراء ذلك معانٍ كثيرة تتفجر من ينابيع الآية إذا فجرها العقل بالنظر في عناصر الموجودات وخصائصها لينتفع بها الإنسان، فأنت ترى هذا الإمام الحكيم لم يقف مع الآية عند أُسلوبها البلاغي المعجز ببراعة بيانها ولكنه أدار البحث حول الآيات الكونية فيها، وفي كيفية دلالتها على الغرض المقصود منها حسب معارف عصره وبيئته الفكرية.

ويروي الرازي أن بعض محبي الحكمة كان يقرأ في كتاب يتحدث عن هيئة الأفلاك ونظامها على حكيم من علماء الفلك، فدخل عليهما بعض الفقهاء فقال لهما: ما الذي تقرآنه؟ فقال الحكيم: نفسر آية من كتاب الله وهي قوله:

﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا﴾

[سورة ق:٦]

فأنا أفسر كيفية بنيانها، قال الرازي: «ولقد صدق هذا الحكيم؛ فإن كل مَن كان أكثر توغلًا في بحار مخلوقات الله كان أكثر علمًا بجلال الله تعالى».

ثم ألا يكون من البداهة أن يطلب من القوَّامين على فهم القرآن فهمًا صحيحًا أن يحيطوا علمًا بمنازل القمر وسيره في تلك المنازل، وكيفية علم عدد السنين والحساب في معرفة المنازل وسير القمر فيها؟ وهل للشمس سَيْر ومنازل كسير القمر ومنازله؟ وهل لها دخل في علم عدد السنين والحساب؟ بلى كل ذلك يجب أن يُعلَم، ولقد علم أسلافنا من ذلك ما بلغ إليه جهدهم، وبهذا العلم استعانوا على تفسير هذه الآيات وأمثالها.

ثم كيف يستطيع القوامون على دراسة القرآن الحكيم فَهْم قوله تعالى في خاتمة الآية:

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾

[يونس:٥]

فهمًا يدعون به الناس - ولا سيما الماديين وعلماء الطبيعة والفلك - إلى عقيدة الإسلام المؤسَّسة على وجود الصانع، الخلَّاق العليم، الواحد الأحد، القادر الحكيم، لو لم يكونوا على علم راسخ بخواص الأفلاك، وما أودع في أجرامها من القوى حتى يُعرَف الحق الذي خلقها الله به، ليقع تفصيل الآيات موقعه من العقول والقلوب؟ يقول الرازي: «قال حكماء الإسلام هذا يدل على أنه سبحانه أودع في أجرام الأفلاك والكواكب خواص معينة وقوى مخصوصة باعتبارها تنتظم مصالح هذا العالم السفلي؛ إذ لو لم يكن لها آثار وفوائد في هذا العالم لكان خلقها عبثًا وباطلًا وغير مفيد، وهذا ينافي أنها خُلِقَت موصولة بالحق».

وإذا كان أسلافنا من أعلام العلماء وحكماء الإسلام قد خاضوا بحار العلوم، ولجج المعارف، واقتحموا حصون الأفكار في أزمانهم، ولم يتركوا منها مشرعًا إلا وردوه، واتخذوا من كافة معارفهم وأفكارهم معينًا لفهم كتاب الله فهمًا يقوم على حقائق

العلم الصحيح لتبيين هدايته وإقامة حجته، فما موقفنا نحن من عصرنا ومعارفه ووسائله وأفكاره ومذاهبه؟ هل نقف من آيات الله عند مبلغ ما وصل إليه أسلافنا في أعصرهم، وهو نهاية إقدام العقول في بيئاتهم وأزمانهم ومجتمعهم؟ أو نتقدم في شجاعة كما تقدموا إلى البحث بوسائل عصرنا، ونخوض في بحار معارفه بعقولنا التي رباها القرآن الحكيم وحريته، وبراعة أسلوبه، ولطف مدخله، ودقة تصويره، وروائع تناوله لقضايا الحياة والكون، مع عنايته بتثبيت قواعد الإيمان في قلوب دارسيه من المؤمنين؟

## أيها السادة الأعلام،

إن الجانب الكوني في آيات القرآن الحكيم - وهو جانب مهم جدًّا - لأنه عماد الدلائل الإلهية على وجود الله تعالى، وتوحيده وباهر قدرته، وواسع علمه، ولطيف حكمته، وسائر ما يجب له تعالى من الكمال - في حاجة ماسة إلى التفسير والبيان بأسلوب علمي يبرز عن طريق ملاحظة الظواهر الكونية حجة الله على خلقه، ويكشف عمّا في الآيات من أسرار وحقائق ناط الله بها كثيرًا من منافعنا ومصالحنا في الدين والدنيا، وقد أشار إليها القرآن في

آياته ودلائله، وبدأ العلم يكشف عنها الحُجُب ولكن على شرط أن نحذر؛ فلا نُخضع القرآن لنظريات لا تزال في مهب التجارب وقد تعصف بها فتصبح من قبيل الأساطير فنقول إنها تفسير لآيات القرآن كما صنع ذلك بعض المتحمسين وبعض المخدوعين ببريق العلم التجريبي، وأن نحذر أيضًا حذرًا أشد وأعمق من الشطحات القرمطية الخبيثة التي تقصد إلى تحريف آيات الله عن مواضعها.

والقرآن كتاب الله الذي أُحكِمَتْ آياتُه ثم فُصِّلَتْ من لدن حكيم خبير، أنزله الله هدى للناس ورحمة فهو لا يخضع لأسلوبٍ حديث ولا أسلوبٍ قديم، وإنما تُفَسِّره الحقائق والبراهين التي يحققها البحث العلمي المستند إلى الأُصول الإسلامية وفهم العقول المستقيمة.

والنظر في تفسير الآيات الكونية يجب أن يقصد أولًا إلى تبيين هداية القرآن تبيينًا علميًّا، لا على أساس أن نجعل النظريات العلمية التجريبية هي تفسير الآيات القرآنية ومعانيها التي قصدها القرآن الكريم، ولكن على أساس أن القرآن الكريم لا يصادم علمًا

ثبت بالبرهان القطعي ثبوتًا لا يحتمل الارتياب والشكوك.

والراسخون في العلم من المؤمنين تزيدهم النظريات العلمية في حقائق الكون وظواهر الطبيعة إيمانًا بجلال الله وعظمة الخلاق العليم؛ لأنهم قرؤوا في لوح الوجود قول خالق الوجود:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾

[الملك:١]

وقوله:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[الروم:٨]

وقوله:

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ⑦ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ⑧﴾[السجدة:٧-٨]

وإذا احتمل خلق الإنسان من طين الجدل بين الداروينيين والنوعيين فإن قضية جعل الأنسال الإنسانية من سلالة من ماء مهين لا يختلف فيها ملحد مع مؤمن، ولا دارويني مع آدمي؛ لأنها

أكبر وأدخل في الصدق الواقعي من أضخم قضاياهم التجريبية التي يؤمنون بها بل هي أصدق من نظر التجربة المتكررة التي لم يشذ عنها المرةُ الواحدة في ملايين الملايين من السنين من أي قضية تدخل تحت البداهة المُسَلَّمة عندهم.

# الدستور الموجِّه

- إيقاظ العقول للتحرر من العبودية لغير الله.
- سنّة التدافع بين البشر في آيتين.
- نقد لتفسير الطبري والقرطبي.

والقرآن الحكيم دستور الإسلام - وهو الكتاب الذي نزل على النبي الأمي يوجِّه العقل الإنساني - في كل ما منحه الله من قوة وجبروت - إلى النظر في ملكوت الله؛ ليكشف حقائق الكونِ، ويرفع الحجب عن أسراره، ويفسر آياته في الأنفس والآفاق التي وعد الله تعالى بكشفها للعقل الإنساني في قوله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

فالقرآن دستور موجِّه يرسُم للإنسانية طرائق حياتها، ويربي أفرادها وجماعاتها، وهو قانون يشرح لها أحكام الوقائع والأحداث؛ لتحقيق كافة مصالحها التي تقع بين طرفي العدل والرحمة، وكتاب مؤسِّس لعقيدتها ونظام تعبدها، وقائدٌ يسوسها بتعاليمه، أنزله الله للهداية وإقامة دعائم العدل والرحمة والمحبة، فإذا تحدث عن آيات الله في الآفاق والأنفس فهو لا يقصد إلى تحقيق نظريات علمية قائمة على تجارب التحليل المادي أو الاختبار التجريبي، أو قياس المسافات، ومعرفة أقدار الأجرام

عرضًا وطولًا وسُمْكًا، أو تأليف العناصر وتحديد ما ينشأ عن امتزاجها وتركيبها من مواد جديدة، أو حساب درجة سير الكواكب ومقادير الفضاء بينها؛ وما في هذا الفضاء من مخلوقات، إلى نحو ذلك من أبحاث علمية يقوم بها العلماء في معاملهم ومدارسهم بوسائلهم الخاصة مما لا يمكن القطع بصحة جميع قضاياها ونظرياتها، ولا يمكن التشكيك في آثارها المشهودة.

وإنما يقصد القرآن من ذكر آيات الله في الكون وأسرار الوجود إلى إيقاظ العقول؛ لتنهض بواجبها في كشف الحقائق الكونية لتصل أولًا وقبل كل شيء إلى معرفة الخالق العظيم وإلى معرفة عظمة ملكه وسعة سلطانه، وصدق أنبيائه ورسله ولِتُحَرَّر من التعبد للمخلوقين؛ لتُفرِد الخالق بالتقديس، وتستخدم هذه الكشوف التي تصل إليها في إنهاض الإنسانية ونفعها وترقيتها في مدارج الكمال البشري حتى تحقق رسالتها في الحياة.

ومن هنا نرى أنه لا ينبغي أبدًا أن يُعرَّض القرآن في تفسير آياته الكريمة للهزات التجريبية فتُحمَل على نظريات العلم الحديث وكشوفه على أنها المعنى المراد من الآية، فيقال إن النظرية الفلانية

أو اختراع كذا أو كشف كذا مذكور في القرآن وإن القرآن أراده عينه في آية من آياته، كما يفعل بعض المتحمسين في حسن نية وقصد بريء، أو سوء نية وقصد خبيث.

والذي يجب أن يقال هو أن القرآن الحكيم -في جميع ما تحدث عنه من عقيدة، وتشريع، وأدب، وأخلاق، وسياسة، واجتماع، وعرض لجمال الكون وآياته الباهرة - لا يمكن على مدى الدهور والأزمان - مهما اتسعت دائرة العلم والاختراع، واستبحرت الحضارات المستقيمة - أن تصادم آياتُه الكريمة علمًا مقطوعًا بحقيقته، ولا كشفًا عُرِفَتْ مباديه ونهاياته وسائر ظروفه التي أحاطت بوجوده ضرورة، إنَّ القرآن دستور شريعة عامة خالدة خاتمة للشرائع السماوية، فهو حق من عند الله والحق لا يصادم الحق فإن جاءت هذه المصادمة – ولن تجيء – عمدنا إلى قانون التأويل العربي الصحيح.

يقول الإمام الفيلسوف ابن رشد: «وإذا كانت هذه الشريعة الإسلامية حقًّا وداعية إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحق فإننا - معشر المسلمين - نعلم - على طريق القطع - أن النظر البرهاني

لا يؤدي إلى مخالفة ما ورد به الشرع فإن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له، ... ونحن نقطع قطعًا أن كل ما أدى إليه البرهان القطعي وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي وهذه القضية لا يشك فيها مسلم».

والعقل في نظر علماء الإسلام هو صاحب السلطان الأول في الكشف عن حقيقة آيات الله في الأنفس والآفاق في حدود طاقته، والقرآن الكريم موجِّه للعقل ومرشِد، يأخذ بيده إلى أول الطريق، ويدفعه دفعًا إلى النظر والبحث، وعلى هذا السَّنَنِ سلك علماء الإسلام في حياتهم العلمية البارعة الرائعة العامرة، يوم أن كانت دولة الإسلام حرة موحَّدة قوية تُملِي على الحياة إرادتها، ولو أن دولة الإسلام امتد سلطانها الموحَّد، وقوتُها المسيطرة وحريتُها المرهوبة، ولم تفرقها الأهواء والشهوات الرخيصة، ولم تضعفها الفرقة المذلة، ولم يقبض على زمامها صنائع الشهوات حتى أسلموها للضعف ففرق شملها، وأوهن قوتها، وعطَّل تفكيرها؛ لتابعت طريقها في النهضة العلمية التي بدأتها في ظل القرآن، ولكانت هي صاحبة الكشوف والاختراعات، ونظريات العلم،

والاتصال بالشموس والأقمار؛ لأن علماء الإسلام لم يقفوا دون علم من العلوم إلا اقتحموا لُجَّتَه، ولا فن من فنون المعرفة إلا خاضوا بحره بشغف بالغ وحب للعلم والمعرفة، وتقديس للعقل بأسلوب واقعي يجمع بين نظر العقل والمشاهدة، في حدود ما كان لديهم من وسائل وآلات، وقد اعترف بهذه الحقيقة المنصفون من غير المسلمين، يقول صاحب كتاب «النزاع بين العلم والدين» ـ وهو أستاذ من أساتذة الجامعات الأميركية ـ: «إن علماء المسلمين شرعوا يطلبون العلم، فلم يَدَعُوا فنًّا من فنونه ولا فرعًا من فروعه إلا حذقوه وصاروا أئمته، وكان تفوقهم في العلوم ناشئًا من الأسلوب الذي توخوه في مباحثهم؛ فإنهم تحققوا أن الأسلوب النظري لا يؤدي إلى التقدم، وأن الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودًا بمشاهدة الحوادث ذاتها، ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم الأسلوب التجريبي والدستور العلمي، وهذا الأسلوب هو الذي أداهم لاكتشاف علم الجبر وغيره من علوم الرياضة والحياة».

أما الآيات التي تتحدث عن بعض الظواهر الاجتماعية في حياة

المجتمع البشري فهي أيضًا كثيرة جدًّا، وكان حظها من التفسير أفضل في الكَمِّ من حظ الآيات الكونية، على معنى أن هذه الآيات الاجتماعية ملأت حيزًا من دواوين التفسير أعظم وأضخم مما ملأته الآيات الكونية.

وقد كانت هذه الكثرة والضخامة في الحيز الذي استولت عليه الآيات الاجتماعية في التفاسير مما وجه هذه الآيات وجهة بعيدة عن هداية القرآن.

ولا نستطيع أن نعدد الشواهد والأمثلة في نماذجها من أقوال المفسرين في هذه الآيات؛ لأن هذا يطول ولا يُسْتَوْعَب، ولكنا نسوق شاهدًا اجتماعيًّا يتصل بطبيعة الحياة البشرية بصفة عامة يكفي للتدليل على أن الدراسة القرآنية التي بين أيدي المسلمين اليوم - ولا سيما الآيات الاجتماعية بعد الآيات الكونية - في حاجة شديدة إلى نظرات القوّامين على هذه الدراسة في معاهد العلم وجامعات الإسلام.

عَرَضَ القرآن الكريم لسنة اجتماعية من سُنَنِ المجتمع البشري، هي سُنَّة التدافع بين البشر أفرادًا وجماعات، أممًا

وشعوبًا، دولًا وحكومات في آيتين من آياته البينات يوشك أن يكون لفظ النص فيهما واحدًا، أبان فيهما أن من سُنَنِ الله الاجتماعية أن يدفع بأهل الحق والخير والإصلاح أهلَ الباطل والشر والفساد.

الآية الأولى في سورة الحج، وهي أولى في نظم البحث، لا في ترتيب القرآن لما فيها من التفصيل يقول الله تعالى:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[الحج: ٤٠، ٤١].

فالله يذكر في هذا النص القرآني أن إذنه للمظلومين في قتال الظالمين سُنةٌ من سننه الكونية التي أقام عليها دعائم العمران والاستقرار في الحياة، فيدفع أهلَ الشر والفساد بأهل الخير والصلاح، وسنعرض رأيين في تفسير الآيتين لإمامين، أحدهما من أئمة التفسير في عصور الخلف وهو الإمام القرطبي، الذي تداول

الناس تفسيره وجعلوه مرجعًا لهم. والثاني إمام المفسرين قاطبة وأولهم في تدوين التفسير تدوينًا مستقرًّا اتخذه الناس إمامهم في التفسير بالمأثور إلى جانب ما له من آراء دقيقة موفقة يجنح فيها إلى الاجتهاد، ذلكم هو الإمام أبو جعفر الطبري.

يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ أي لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما يبنيه أهل الديانات من مواضع العبادات، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرَّغ أهل الدين للعبادة، فالجهاد أمر متقدم في الأمم وبه صلحت الشرائع.

هذا المعنى المُحكَم هو عينه المعنى الذي جاءت به الآية الثانية في سورة البقرة بلفظ النص سواء، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١] وكما جاءت آية الحج عقيب إذن الله تعالى للمؤمنين في قتال الكفرة الظالمين؛ فكانت مؤكِّدة لشرعية القتال لدفع الظلم وتأمين الحياة في أقدس مظاهرها؛ جاءت آية البقرة عقيب قصة دفع

جالوت وجنوده - من نماذج الظلم والطغيان - بجند طالوت من أهل الخير والإيمان، وهذا كالصريح في أن المراد بدفع الله الناس بعضهم ببعض تسليط أهل الصلاح والبر على أهل الفساد والفجور؛ لينتصفوا منهم ويقيموا عليهم ميزان الحق والعدل، ويأمن أهل الأديان على قداسة حرياتهم.

بيد أن آية البقرة أجملت نتيجة عدم دفع الله الناس بعضهم ببعض باستسلام أهل الخير والصلاح لأهل الشر والفساد، فجعلتها فساد الأرض، ومعناه شيوع الهرج والمرج وإثارة الفتن واستطالة الظالمين، وذيوع الكفر والإلحاد، واستحواذ القلق والاضطراب والفزع على قلوب الضعفاء المظلومين، فلا يستطيع مُتعبِّد لله أن يتعبد، ولا يأمن مؤمن أن يُظهِر إيمانه، ولا يتمكن مسلوب الحق مهدر الكرامة أن يجأر بشكواه، وإذا اجترأ فجأر بها فلن يجد سميعًا، ومن ثم؛ تتلف أعصاب الناس، وتكثر فيهم الأمراض الفتاكة التي يولدها الكبت والخوف، ويفسد المجتمع الإنساني فسادًا لا صلاح معه، وهذا المعنى هو الذي ذكرته آية الحج في نتيجتها بعنوان تهديم مواضع العبادات وتخريبها عند

سائر الأمم كأنموذج لأبشع أنواع الفساد التي تترتب على كف أيدي المؤمنين عن الطغاة الظالمين، واستكانتهم لهم واستسلامهم لغوائلهم.

ومن العجيب ما وقع في تفسير آية المدافعة - وهذا نَسَقُها وَجَوُّها - لكثير من جهابذة المفسرين وفي طليعتهم شيخهم الإمام أبو جعفر الطبري: «من أن المعنى أن الله تعالى يدفع عن بعض الناس وهم الكفرة والمنافقون وأهل الفجور، تعجيل العقوبة، ببعض آخر، وهم أهل الإيمان واليقين والصلاح، وعلى هذا يكون المعنى والتركيب في أسلوب الآية «ولولا دفع الله عن بعض الناس العذاب والعقوبات بسبب وجود أهل الخير والديانة وبركتهم وفضلهم عند الله تعالى لفسدت الأرض، أي لأهلكهم الله بذنوبهم».

قال أبو جعفر الطبري، في تفسير آية البقرة - مع اختصار عبارته بما لا يخل بمراده - يعني تعالى ذكره: «ولولا أن الله يدفع ببعض الناس - وهُم أهل الطاعة له والإيمان به - بعضًا - وهم أهل المعصية لله والشرك به - لفسدت الأرض، يعني لهلك أهلها بعقوبة الله إياهم

ففسدت الأرض بذلك، ولكن الله ذو مَنٍّ على خلقه وتطول عليهم بدفعه بالبَرِّ من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم، وبالمؤمن عن الكافر».. ثم قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «وهذه الآية إعلام من الله - تعالى ذكره - أهلَ النفاق الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ المتخلفين عن مشاهده والجهاد معه للشك الذي في نفوسهم ومرض قلوبهم، والمشركين وأهل الكفر منهم، وأنه إنما يدفع عنهم معاجلتهم العقوبةَ على كفرهم ونفاقهم بإيمان المؤمنين به وبرسله الذين هم أهل البصائر والجد في أمر الله، وذوو اليقين بإنجاز الله إياهم وعدَه على جهاد أعدائه وأعداء رسوله من النصر في العاجل، والفوز بجنانه في الأجل».

ولو أن أبا جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقف بتفسير الآية عند هذه العبارة لكان يمكن أن يكون فيها مجال للتأويل يردها إلى ما ذكرنا من تفسير الآية في أسلوبها التركيبي وجوِّها المحيط بها - سياقًا وسباقًا - ولكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أعقب ذلك بنقول عن بعض أئمة السلف من المفسرين كانت صريحة في قصده المعنى البعيد عن أسلوب الآية، ثم راح أبو جعفر، يؤيد تلك النقول بأحاديث مرفوعة إلى

النبي ﷺ لم يظهر لنا في سياقته لها أنها وردت لتفسير الآية، وإنما وردت لتقرر قضية من قضايا الإيمان بالله وارتباطها بسعة مِنَنِ الله على عباده، ولتفيد أن رحمة الله بالناس جَعَلَتْ من سنته في خلقه أن المجتمع الإنساني ما دامت معالم الخير والصلاح قائمةً بين جنباته فإن الله تعالى لا يعجِّل على أهل الشر والفساد بعقوبة الاستئصال، بل يصرف البلاء عنهم بالصالحين من عباده، وهذه - بلا ريب - قضية أخرى ومعنى آخر غير معنى جهاد الظالمين وقتالهم لدفع شرهم، وهو الذي سيقت له الآية على ما يُفهَم من ربطها بقصة طالوت وجالوت.

قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، حدثني محمد بن عمر، قال حدثنا أبو عاصم، عن عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قول الله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ يقول ولولا دفع الله بالبرِّ عن الفاجر، ودفعه ببقية أخلاف الناس بعضهم عن بعض لفسدت الأرض بهلاك أهلها».

وروى أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عليّ - كرَّم الله وجهه ورضي عنه -

أنه قال: «لولا بقية من المسلمين فيكم لهلكتم»، ثم روي أيضًا عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَدْفَعُ بِالْمُؤْمِنِ الصَّالِحِ عَنْ مِائَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَجِيرَانِهِ الْبَلَاءَ**»[1]، ثم قرأ ابن عمر ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾، ورُوي عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيُصْلِحُ بِصَلَاحِ الرَّجُلِ الْمُسلمِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ ولده، وَأهل دُوَيْرَتِهِ، وَدُوَيْرَاتٍ حَوْلَهُ، وَلَا يَزَالُونَ فِي حِفْظِ اللهِ مَا دَامَ فِيهِمْ**»[2].

وحديثا عليّ وجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ليس فيهما تعرُّض للآية على اعتبار أنهما مفسِّران لها، وحديث ابن عمر من بابهما غير أن الرواية تقول إن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قرأ الآية عقب الحديث كدليل على تحقيق معنى الحديث بإفادة أن القرآن الكريم جاء بهذا المعنى، وهذا يقتضي أن ابن عمر يرى من قبيل الاستنباط اجتهادًا منه لا سماعًا عن رسول الله ﷺ أن الآية متضمنة معنى الحديث.

فما الذي ألجأ هذا الإمام الجليل إلى ذهابه لذلك الرأي الذي فسر به آية البقرة واقتصر عليه، ولم يذكر غيره كما صنع في آية

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني ٤/ ٢٣٩ حديث رقم: (٤٠٨٠) بنحوه.

(٢) السنن الكبرى للنسائي ١٠/ ٤٠٨ حديث رقم: (١١٨٦٦) بنحوه.

الحج، وهذا الرأي أبعد الآراء المحتملة في تأويل الآية، حسبما يدل عليه أسلوبها التركيبي وهو أن الله يدفع بعض الناس ببعض، ولم تقل الآية إن الله يدفع عن بعض الناس ببعض؟ هذا عجيب، والكمال المطلق لله ـ تعالى شأنه ـ.

وذهب أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آية البقرة مذهب الطبري فيها، وخالف القرطبي فيها رأي نفسه في آية الحج، وهي أختها رضيعتها، وأغرق القرطبي في تشييد هذا الرأي بذكر أحاديث «الأبدال» وأنهم هم المدفوع بهم الفساد، فقال:

«المسألة الثانية: واختلف العلماء في الناس المدفوع بهم الفساد؛ مَنْ هم؟ فقيل: هم «الأبدال»؛ فهم أربعون رجلًا كلما مات رجل بدل الله منه آخر، فإذا كان عند القيامة ماتوا كلهم، اثنان وعشرون منهم بالشام وثمانية عشر بالعراق، ورُوي عن عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ الْأَبْدَالَ يَكُونُونَ بِالشَّامِ، وَهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، كُلَّمَا مَاتَ مِنْهُمْ رَجُلٌ أَبْدَلَ اللهُ مَكَانَهُ رَجُلًا، يُسْقَى بِهِمُ الْغَيْثُ، وَيُنْصَرُ بِهِمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَيُصْرَفُ بِهِمْ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ الْبَلَاءُ**»، ذكره الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول»[1] وخرّج

(١) ٣/ ٦٣.

القرطبي أيضًا عن أبي الدرداء قال: إن الأنبياء كانوا أوتاد الأرض، فلما انقطعت النبوة أبدل الله مكانهم قومًا من أمة محمد ﷺ يقال لهم الأبدال، لم يَفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بحسن الخلق، وصدق الورع، وحسن النية، وسلامة القلوب لجميع المسلمين، والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر وحلم ولب وتواضع في غير مذلة، فهم خلفاءُ الأنبياء قوم اصطفاهم الله لنفسه، واستخلصهم بعلمه لنفسه، وهم أربعون صديقًا، منهم ثلاثون على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن، يدفع الله بهم المكاره عن أهل الأرض والبلايا عن الناس، وبهم يمطرون ويرزقون، لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ مَن يخلفه».

ثم قال القرطبي بعد هذا: «وقال ابن عباس: «ولولا دفع الله العدو بجنود المسلمين لَغَلَبَ المشركون فقتلوا المؤمنين، وخربوا البلاد والمساجد»»؛ أفما كان في هذا التفسير - وهو من جواهر الحبر غنية عن حديث الأبدال الذي أُقحم إقحامًا على أسلوب الآية وسياقها؟ إن هذا المعنى هو الرأي والمعنى، لا رأي ولا معنى غيره، وهو الذي ذكره القرطبي نفسه في آية الحج، فليته رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعتصم بأهداب حبر الأمة، واقتصر على هذا المعنى الذي هو درة

من درر غوصه في بحار المعاني القرآنية وهي خصيصته بالدعوة المستجابة النبوية، ولكن القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد سوقه لهذه الكلمة الحكيمة والرأي السديد في غمرة أحاديث الأبدال، عاد من حيث بدأ فقال: «وحكى مكي أن أكثر المفسرين على أن المعنى لولا أن الله يدفع بِمَن يصلي عمَّن لا يصلي، وبِمَن يتقي عمَّن لا يتقي لأهلك الناس بذنوبهم»، قال: «وكذا ذكره النحاس والثعلبي أيضًا وقال سائر المفسرين: ولولا دفع الله بالمؤمنين الأبرار عن الفجار لفسدت الأرض، أي أُهلكت»، وذكر حديثًا أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ يَدْفَعُ الْعَذَابَ بِمَنْ يُصَلِّي مِنْ أُمَّتِي عَمَّنْ لا يُصَلِّي، وَبِمَنْ يُزَكِّي عَمَّنْ لا يُزَكِّي، وَبِمَنْ يَصُومُ عَمَّنْ لا يَصُومُ، وَبِمَنْ يَحُجُّ عَمَّنْ لا يَحُجُّ، وَبِمَنْ يُجَاهِدُ عَمَّنْ لا يُجَاهِدُ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى تَرْكِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مَا أَنْظَرَهُمُ اللهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ** ﷺ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾»(١).

ثم ذكر حديث جابر، وحديث ابن عمر، اللذين ذكرهما الطبري وأشرنا إليهما في سياقة كلامه، بيد أن القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر أن بعض العلماء قال هذا الدفع بما شرع الله على ألسنة الرُّسُل من

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٦/ ٩٧ حديث رقم: (٧٥٩٤) بلفظ مقارب.

الشرائع، ولولا ذلك لتسالب الناس وتناهبوا وهلكوا، قال إن هذا قول حسن، فإنه عموم في الكف والدفع وغير ذلك، ثم وكأنه نسي فقال في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١]

الذي خُتِمَت به آية الدفع في سورة البقرة: «بيَّن الله سبحانه أن دفعه بالمؤمنين شرَّ الكافرين فضلًا منه ونعمة». وهذا هو الرأي إذًا ففيم كان حديث الأبدال؟ وما صلته بالآية؟ وفيم كان النقل عن مكي والنحاس والثعلبي ودعوى أن ذلك هو رأي أكثر المفسرين؟ وحديث الأبدال يرويه ويذكره في مؤلفاتهم الصوفية، ولا يسلمه لهم جهابذة المحدثين[1]، فهو ـ مع بُعْده عن أسلوب الآية وسياقها ـ لا ينبغي أن يُعتمَد عليه في تفسيرها.

---

(١) أورد ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ١٥٢) أحاديث الأبدال، وطعن فيها واحدًا واحدًا، وحكم بوضعها، وتعقبه السيوطي حيث قال في «النكات البديعات على الموضوعات» (ص ٢٨٠): «خبر الأبدال صحيح، فضلًا عما دون ذلك، وإن شئت قلت: متواتر»، وأَوْرَدَ طرقَهُ، ثم قال (ص ٢٨٢): «ومثل ذلك بالغ حد التواتر المعنوي لا محالة، بحيث يقطع بصحة وجود الأبدال ضرورة»، وقد أفرده بمؤلَّف، وهو: «الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال»، وهو مطبوع، وللحافظ السخاوي فيهم جزء باسم =

هذه السبيل في تفسير القرآن الحكيم هي ديدن كثرة التفاسير المتداولة في أيدي أهل العلم، تذكر الرأي السديد الموفَّق، ثم تُغَيِّبه في كِسَف من سُحُب الآراء والروايات التي تستجلبها أدنى المناسبات اللفظية أو المعنوية، فلا يكاد يكون الرأي السديد بينها إلا رأيًا شاحبًا هزيلًا، وهو - في الواقع - الرأي الذي يدل عليه الأسلوب والتعبير، والذي يجب ألا يذكر تفسيرًا للآية سواه.

ولو نقلنا ما قاله أصحاب التفاسير المشهورة في تفسير آية المدافعة في موضعيها من القرآن الكريم لرأينا كثرتهم يمشون في هذا الطريق المشتبه المعالم، فمرة على الجادة وأُخرى في متائه الروايات والأنقال، دون تحقيق صحة السند وسلامة المعنى، ونكتفي بهذا - فهو كافٍ - في تحقيق المقصود، ومَن أراد المزيد فليرجع إليها.

---

=«نظم اللآل في الكلام على الأبدال»، وقد نقل العلامةُ المُنَاويُّ حُكْمَ السيوطي والسخاوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٣/ ١٦٩) وأقرَّه، وقال الحافظ محمد بن جعفر الكتاني في «نظم المتناثر من الحديث المتواتر» (ص ٢٢٠، ح: ٢٧٩): «وبهذا يظهر بطلان زعم ابن تيمية أنه لم يرِد لفظ الأبدال في خبر صحيح ولا ضعيف إلا في خبر منقطع، وليته نفى الرؤية فقط، لكنه نفى الوجود، وكذَّب مَنْ ادَّعَى الورود!».

# ضرورة غربلة كتب التفسير

- المفسّرون القدامى بذلوا جهودًا مشكورة.
- الواجب الكبير الملقى على عاتقنا.
- مجمع قرآني.
- منهجان للتفسير.

ألا - وحرمة الحق - لو أن علماء الإسلام وجهوا عنايتهم العظمى في هذا العصر الطُلَعة إلى غربلة كتب التفسير، وأخرجوا منها للناس كتابًا واحدًا في رُبُع أو خُمُس أو عُشْر حَجْم أحدها، ثم قاموا بطبعه وترجمته وتوزيعه في أرجاء العالم بثمن وبغير ثمن؛ لأغناهم هذا وأغنى العالم الإسلامي عن التفكير الكسيح هنا وهناك، ولأغناهم وأغنى العالم الإسلامي عن هذا الغثاء الذي تقذفه المطابع كل يوم في وجه الناس على أنه تفسير للقرآن، ولأغناهم وأغنى العالم الإسلامي عن هذه التراجم المحرِّفة للقرآن، ولكان فيه أعظم دعاية وتبليغ للإسلام[(١)].

فهل ينهض العلماء بعبء رسالتهم وتتاح لهم فرصة أدائها بتمكينهم من وسائل القيام بواجبهم نحو الإسلام والمسلمين؟ أو

(١) اعتنت الدوائر البحثية في الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف المصرية بتحقيق هذا الهدف، فصدر كتاب «المنتخب في تفسير القرآن الكريم» عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، كما تُرْجِم هذا التفسير إلى لغات حية عديدة.
واعتنى أساتذة الأزهر بترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغات عِدَّة ذاع صيتُها في العالم كله واحتفى بها المسلمون وغير المسلمين.

أن القافلة ستمضي وهم عن واجبهم مشغولون؟ لعل وعسى، وإنما الأمل في فضل الله العظيم.

وإنما سُقْنَا هذه الشواهد؛ لأننا قصدنا التنبيه إلى مظهر شائع في كتب التفسير، وهي العمدة في فهم القرآن، والقرآن دستور الإسلام الذي لا دستور له سواه، وقانون المسلمين الذي لا قانون لهم سواه، وكتاب الإنسانية المدْعوَّة إلى الإيمان به وفهمه، والأخذ بتشريعاته، والتمسك بآدابه.

وتلك الكتب التي فسَّرت القرآن في عصور مختلفة المناهج في الحياة الاجتماعية والسياسية والمعارف الإنسانية قد قام أصحابها بواجبهم نحو القرآن ونحو الأمة في عصورهم بأكثر مما في طاقتهم، وبذلوا من الجهد والفضل والتفكير فوق ما يستطيعه البشر، لولا تأييد الله لهم مما آتاهم من الصبر والمصابرة والجلد على سهر الليالي وظمأ الهواجر، فجزاهم الله أحسن ما جزى العلماء المجاهدين في خدمة الإسلام والمسلمين، فهم بين مأجور بأجرين مصيب في اجتهاده، ومأجور بأجر مخطئ في اجتهاده.

أما نحن - وهذا عصرنا المتنكِّر للدين والقيم الروحية والخُلُقِيَّة المليء بالشبه الإلحادية المادية والعقلية، المفعم بمعارف لا عهد لأسلافنا بكثير منها ولا بطرائقها ووسائلها - فإننا مطالبون أشد المطالبة بالقيام بعمل جاد لخدمة القرآن وإتاحة فهمه للناس، بروح تقدر الواقع، وتقف معه، وتواجهه، ولا تتهرب منه، وتفهمه وتفهم طرائق علاجه، بدراسة الآراء والمذاهب الذائعة دراسةً تعتمد على ضوء الهَدْي القرآني، ودَحْضِ الزائف منها بالحجة النَّيِّرة، والترحيب بكل ما يظهر أنه حق وخير وهدى ورحمة للناس والحياة، وهذا - بلا شك - عمل شاقٌّ، تنوء به كواهل الأشداء؛ لأنه عمل يطالبنا بأن نُغَيِّر الكثير من مناهج تعليمنا، وتربيتنا، وسلوكنا، وأفكارنا، ومعارفنا، ومظاهر حياتنا.

وهيهات أن تتحقق الطفرة، ولكن علينا أن نبدأ، وأن نُمهِّد، وأن نفتح الأبواب والنوافذ، لِيَنْشُرَ الضوءُ أردية أشعته على الأفكار والعقول والقلوب والأرواح، وتجدِّد النسائمُ النقية أجواء الحياة من الهواء الغليظ الحبيس.

إن الآمال والنظريات - إذا لم يحاول العاملون في توجيه

الدراسات القرآنية تحويلها إلى حقائق واقعية - لن يكون لها أثرها الإيجابي في هذه الدراسات.

ولأجل أن نكون في آمالنا وما عرضناه من نظريات واقعيين، نرى - وقد أطلنا الحديث - والبحثُ لم يبلغ مداه - أن نكف من عنان القلم؛ لنتقدم إلى جمهرة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وإلى علمائهم عامة باقتراحٍ ورغبةٍ نتيجةَ دراسةٍ مستفيضةٍ أودعناها في بعض مؤلفاتنا القرآنيّة.

ذلك أن النهوض بعبء تفسير القرآن الكريم على أساس المنهج الذي عرضناه في إجمال غير مجحف بالبيان لا يمكن أن يقوم به فرد مهما كان شأنه في مقام العلم والمعرفة، أو هيئة تلتزم في حياتها الفكرية منهجًا خاصًّا، وإنما تقوم به طائفة من العلماء المتخصصين في فهم الحقائق الإسلامية الأصيلة فهمًا عميقًا، وطائفة من العلماء المتخصصين في جميع العلوم والمعارف الإنسانية التي عرض لها هذا الكتاب الكريم، لتُعينَ على تجلية تلك الحقائق في أسلوب علمي يُبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم من الهداية الإلهية.

وهذا أمر يتطلب تحقيقه إنشاء مجمع قرآني دائم يستهدف تفسير القرآن تفسيرًا ينهض بالمسلمين نهضة تضعهم في مكانهم من حياة الفكر الإنساني طليعة للمشاركة في بناء الحضارة العالمية على دعائم الإيمان والعدل والإخاء.

ويستطيع هذا المجمع - إذا قُدِّر له الوجود - أن يقوم بوضع منهجين لتفسير القرآن العظيم.

**المنهج الأول**: يقصد إلى وضع تفسير دراسي يعمد إلى بيان الهداية القرآنية وبيان معنى الآيات بيانًا يعتمد على دلالة الألفاظ في أسلوبها محاطة بسياجٍ مُحكَمٍ من الأصول التي نزل بها هذا القرآن المجيد.

وهذا التفسير هو الذي يجب أن يُدرَّس في معاهد الأمم الإسلامية، ومدارسها وجامعاتها؛ توحيدًا لمنهج الدراسة القرآنية التي تجمع المسلمين في أقطار الأرض على ثقافة مُوحَّدةِ الأُسلوب واللغة والتفكير، يؤمنون بها إيمانًا ينبع من إيمانهم بخلود القرآن ما بقي الأذان بالصلوات على منابر الإسلام.

**والمنهج الثاني**: يقصد إلى وضع تفسير للقرآن تُبَيَّن فيه الهداية

الإلهية التي أودعها الله هذا الكتاب الحكيم على أوسع ما تستطيع الطاقة البشرية أن تصل إليه من بحوث علمية ـ كونية أو اجتماعية ـ تدخل في نطاق الأصول الإسلامية التي جاء بها القرآن، لا على أن هذه النظريات العلمية هي التفسير لآيات القرآن وإنما تكون هذه النظريات مساعدًا في بيان المعنى الذي يهدي إليه أسلوب الآيات، ويكون هذا التفسير بمثابة دائرة معارف قرآنية تَسُدُّ لدى العالم الإسلامي فراغًا يشعر به كل مسلم.

ويمكن أن يقوم هذا المجمع القرآني ـ إلى جانب قيامه بهذين المنهجين من التفسير ـ بإخراج كتاب يستقصي ما يمكن استقصاؤه من الإسرائيليات والأغاليط الفكرية التي حُمِّلها القرآن الكريم للتنبيه عليها؛ حتى لا يقع في حبائلها المسلمون.

واللهُ تعالى يقضي ما شاء، إنه بعباده خبير بصير، وهو ولي التوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله،

محمد الصادق عرجون

عميد كلية أصول الدين الأسبق

بجامعة الأزهر

## المحتوى

Amiria
المطابع الأميرية